ملامح أدب السيرة الذاتية المترجم
" نماذج مختارة من الأدب الروسي"

د.رشا غانم

مدرس الأدب والنقد – الجامعة الأمريكية – مصر

الملخص:

يعالج بحثي المعنون" ملامح أدب السيرة الذاتية المترجم نماذج مختارة من الأدب الروسي" أنواعا أدبية تداخلت مع السيرة الذاتية كأدب المذكرات والشهادات واليوميات من خلال نموذجين تطبيقيين الأول :مذكرات طبيب شاب للكاتب الروسي ميخائيل بولغاكوف،والآخر صلاة تشرنوبل للكاتبة البيلاروسية سفيتلانا أليكسييفيتش، **وهو من أدب الشهادات المهتم باليوميات حيث** يعد النموذجان بمثابة شهادات فنية لميخائيل بولغاكوف، وسفيتلانا أليكسييفيتش عبر سيرتهما الذاتية، وسير شخصياتهم لنجد تفاصيل حياة مسكونة بالألم والمحو والاستلاب ومرارة الحرب في روسيا عبر سيرتهما الشخصية، ويكشف البحث عن أهم ملامح أدب السيرة الذاتية في النموذجين.

الكلمات المفتاحية:

دالة ، أدب المذكرات ، النثر الوثائقي ، الشهادات ، الاستلاب ، الجوهر الإنساني.

Features of translated biographical literature, selected models of Russian literature

Dr. Rasha Ghanem- AUC- Egypt

Abstract:

My titled research rises Features of translated biographical literature, selected models of Russian literature on the highlight Biographical literature through Memoir literature In Memoirs of a Young Doctor by Russian writer Mikhail Bulgakov Documentary prose concerned with personal lusts In Chernobyl prayer By the Belarusian writer Svetlana Alexievich Let's find details of a life haunted by pain, erasure, alienation, and the bitterness of war in Russia through their personal biography.

key words:

Memoir literature- Documentary prose- Testimonials- alienation- human essence.

أولا: المقدمة:

يتكون بحثي المعنون "ملامح أدب السيرة الذاتية المترجم، نماذج مختارة من الأدب الروسي" من **المقدمة**، واحتوت على مكونات البحث من هدف، وأهمية، ومنهج البحث، ثم **التمهيد** عن فن السيرة الذاتية، ثم **محورين تطبيقيين** من الأدب الروسي، ثم **خاتمة ونتائج** البحث، ثم قائمة للمصادر والمراجع.

-هدف البحث.

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على نموذجين مترجمين من الأدب الروسي يختصان بأدب السيرة الذاتية. وهما: مذكرات طبيب شاب"[1] للكاتب الروسي ميخائيل بولغاكوف ويعد من أدب المذكرات الشخصية، وصلاة تشرنوبل من النثر الوثائقي المهتم بالشهادات الشخصية[2] للكاتبة البيلاروسية سفيتلانا أليكسييفيتش؛ فهما من منبع واحد يروى من معين السيرة الذاتية، حيث تفاصيل حياة يومية مسكونة بالألم ومرارة الحرب في روسيا.

-أهمية البحث.

ترجع أهمية البحث إلى أنه محاولة ضرورية لإلقاء الضوء على حوار الثقافات بين الشرق والغرب .

-منهج البحث.

حرصت على استخدام المنهج الوصفي التحليلي؛ ليرصد أبعادا في البنية السردية كمكون أساس في كل الأعمال الإبداعية المنوطة بالدراسة. كما وقف على عدة مفاهيم أساسية لكل منها دلالاتها الخاصة.

---

[1] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ترجمة د. غسان مرتضى، سوريا، منشورات وزارة الثقافة دمشق، ط١٩٩٧،١.

[2] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ترجمة، د.أحمد صلاح الدين، القاهرة، مصر العربية للنشر والتوزيع ط١، ٢٠١٥م.

ثانيا: التمهيد: فن السيرة الذاتية:

شهد فن كتابة السيرة الذاتية تطورات مع مرور الزمن، وهو لا ينحصر في كتابة تراجم الكتاب والمؤرخين؛ بل إنه ظهر في أنواع مختلفة من الأدب مثل التاريخ، واليوميات، والمذكرات، والاعترافات، والقصة، والرواية.[١]

السيرة لغة واصطلاحًا:

السيرة في اللغة: الطريقة أو السنة، وكذلك قيل عن السيرة، بأنها هي الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره كما يقال: قرأت سيرة فلان : أي تاريخ حياته"[٢].
في لسان العرب:" السَّيْرُ" : الذهاب، وسار يسيرسيرًا ومسيرة وسيرورة ...والتَّسْيارُ :تَفْعَالٌ ،من السير ... وسَيَّرَه من بلده :أي أخرجه وأجلاه ...وسَيَّرْتُ الجُل عن ظهر الدابة: نزعته عنه، والسِّيْرَة: السنة، والطريقة. يقال: سار بهم سيرة حسنة، والسِّيرة: الهيئة، وجاء في القرآن المجيد سنعيدها سيرتها الأولى، وسَيَّر سِيرة :حدث أحاديث الأوائل".[٣] ويقول الفيروز آبادي في "القاموس المحيط" :السَّيْرُ : هو الذهاب كالمسير والتسيار والمسيرة والسيرورة .والسَّيْرة :الضرب من السير، والسِّيْرَة بالكسر :السنة والطريقة والهيئة"[٤].

السيرة في الاصطلاح:

السيرة في الاصطلاح هي: بحث يقدم فيها الكاتب حياته أو حياة أحد الأعلام المشهورين، ويبرز فيها المنجزات التي تحققت في حياته أو حياة المتحدث عنه.أما فن السيرة في التعريف الأدبي هو: "نوع من الأدب يجمع بين التحري التاريخي، ويراد به مسيرة حياة إنسان ورسم صورة دقيقة لشخصيته".[٥]

---

[١] – د.عبدالمجيد البغدادي، فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي،جامعة بنجاب،لاهور باكستان،مجلة القسم العربي،ع٢٣، ط١ ،،٢٠١٦م.،ص١٩٠.

[٢] – مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط : قام بإخراج هذه الطبعة إبراهيم أنيس ، وآخرون ، الجزء الأول،، الطبعة الثانية أشرف علي، حسن علي عطية ، محمد شوقي أمين ، ١٩٧٢ م ، ص،٤٧٦.

[٣] – ابن منظور : لسان العرب، دار صابر– بيروت ، ، ط٢ ،١٩٩٤، مادة سير.

[٤] – الفيروز أبادي: القاموس المحيط،، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢ ،١٩٨٧،مادة سير.

[٥] – عبد النور، جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان،بيروت،،ط١٩٨٤،٢،ص١٤٣.

وقد بدأ هذا المصطلح سيرة ذاتية إلى الوجود في أول مرة في بداية القرن التاسع عشر، وجاء في المعجم(Oxford) ويرجع تاريخه إلى عام ١٨٠٩م"[١]. و"السيرة الذاتية تعني حرفيًا ترجمة حياة إنسان كما يراها".[٢]

أنواع السيرة: تنقسم إلى نوعين:السيرة الغيرية، والسيرة الذاتية.

١-السيرة الغيرية:

يراد بها الجنس الأدبي الذي يكتبه بعض الأفراد عن غيرهم من الناس،والسيرة الغيرية أقدم زمنًا من السيرة الذاتية، لأنها برزت مع التأريخ ،والأدب .فمنذ وجود الحضارات، جعل الرجال يؤلفون فيها الذين كانوا يتكسبون في بلاط الحكام والسلاطين، فكانوا يكتبون ما كان يجري في زمنهم من تطور فكتبوا للملوك والسلاطين، وللحروب والمحاربين، وإن معظم هذه الأعمال تشتمل تحت مفهوم السيرة الغيرية".[٣]

وتشترك السيرة الشخصية والسيرة الغيرية، في أن كلا منهما تمدنا بسيرة حياة الرجل العبقري؛ لأنهما يتناولان التاريخ الحقيقي للأفذاذ من بني الإنسان وكلتاهما تطلعنا على التطور الخلقي والعقلي والعاطفي[٤]".

٢- السيرة الذاتية:

السيرة الذاتية "حكي استعادي نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة"[٥] .

---

[١] -. عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، القاهرة ، لونجمان، ط١، ١٩٩٢.،ص،٤٢ .

[٢] – السابق، ص، ٢٧.

[٣] – د.عبد اللطيف بغدادي، مرجع سابق،١٩١.

[٤] – يحيى إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٧٥، ص٢٧.

[٥] – فيليب لوجون،السرة الذاتية "الميثاق والتاريخ الأدبي"،ترجمة،عمر حلي،الدار البيضاء،المركز الثقافي العربي،ط١ ،١٩٩٤،ص٢٣.

فهي تتعلق بالواقع، بأنه يذكر ويقص حياته ويقدّم مسار أفكاره، وأحاسيسه. وبذلك التصريح سمّاه فيلب ليجون بميثاق السيرة الذاتية ،وشرط وجود السيرة الذاتية هو الميثاق الأوتوبيوغرافي؛ لتكون هناك سيرة ذاتية يكون هناك تطابق بين المؤلف، والسارد، والشخصية".[1]

والسيرة الذاتية ليست استثناء في نطاق تداخلها مع أجناس أدبية بعينها فهي وإن نشأت مرتبطة بحياة الأنا، ومراحلها العمرية،فإنها تتداخل بغيرها من أنواع الكتابة مثل:المذكرات، واليوميات،والشهادات، والاعترافات، والرواية والحوار الداخلي، وأدب الرحلة والتاريخ.

نجد أن النموذجين المنوطين بالدراسة يقتربان من السيرة الذاتية للمؤلف أو المذكرات الشخصية أو الشهادات أو االمونولوج الداخلي للشخصيات، فكلما اقتربت الكتابة من الذات اقتربت من جوهر الإنسانية، ويمكن القول أنهم يختلفان، عن الرواية السير ذاتية التي تمتزج فيها الحقيقة بالخيال ولا تتعهد بتقديم تقرير عن حياة مؤلفها مثل رواية الطفولة والصبا والشباب لتولستوي وغيرها"[2].

في بحثنا هذا أشار جورج ماي إلى أدب المذكرات والشهادات، فقد يكون الكاتب بصدد "إخبار المرء عما شاهد أو سمع، وإخباره عمّا أتى أو قال، وإخباره عن الأحوال التي كان عليها[3]." وكلاهما من معين السيرة الذاتية.

---

[1] – محمد بوعزة: تحليل النص السردي– تقنيات ومفاهيم –منشورات .الاختلاف، الدار العربية للعلوم، الرباط، الجزائر، الطبعة الأولى،١٤٢١ هـ ، ص.٣٢ .

[2] – بهاء الدين محمد مزيد،النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبنات جنسها ،الأسكندرية،العلم والإيمان للنشر والتوزيع،ط١،٢٠٠٧، ص١١١.

[3] – جورج ماي: السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي، عبد الله صولة، منشورات المؤسسة الوطنية، للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، ط١ ،١٩٩٢، ص ١٣٢.

ثالثا: محوران تطبيقيان:

أ–النموذج الأول، مذكرات طبيب شاب للكاتب ميخائيل بولغاكوف .

أدب المذكرات.Les mémoires

يعد أدب المذكرات ركيزة أسياسية في الأدب وطريقة معتمدة لتدوين التاريخ، وتندرج المذكرات الأدبية، من الظواهر الأدبية التي تستدعي – في عصرنا هذا – التأمُّلَ والتفكير، شيوعُ كتابة المذكرات، ففي زحمة النتاج الفكري، تستأثر كتب المذكرات واليوميَّات بجزء وافر منه، فلم يَعُدْ هذا النوع – كما كان في الماضي – وقفًا على أرباب العلم والمعرفة، أو ذَوِي الشخصيَّات الفذَّة التي لها في المواهب، والعَلاقات، والأثر، والأفق الذهني الخارق للمألوف، ما يؤهّلُها أو يحمِلُها على تدوين مُذَكَّراتها، تُودِعُها خُلاصَةَ التَّجارِب التي مَرَّتْ بِها، أو شهادتِها أمام محكمة الحق والتاريخ.

يسمى هذا النوع من الكتابة بالمذكرة وهي "ما يستعين به شخص ما في حفظ مشاهداته ومواعيده باليوم والساعة والتاريخ، وهي شبيهة إلى حد كبير باليوميات"[١].

ويعنى كاتب هذا النوع بالتركيز على "سرد الأحداث الخارجية أكثر من تقديم تحليل ذاتي، فهو يضطلع بمهمة المقرر أو الإخباري الذي يحرص على عرض أحداث معينة بدافع الشهادة، وتعليل الفعل أو القول بعد حصولهما، ويختلف عنهما كون وظيفته لا تنحصر في وصف ما شاهده؛ وإنما في إبراز دور فيه، أو موقفه منه"[٢].

ويتحدَّد مفهوم المذكرات وأنواعها تبعًا لمظاهر الحياة الثلاثة: الأفعال، والأفكار، والعواطف، ويقابلها: المذكرات التاريخية، المذكرات الوثائقيَّة، المذكَّرات الشخصيَّة

---

[١] – د. سلطان سعد القحطاني: التماس الفني بين السيرة الذاتية والرواية، مقال ضمن مجلة علامات، جمادى الأولى١٤٢٩ هـ مايو٢٠٠٨ ، مج ٦٥ ، ص٢٢٥.

[٢] – د.محمد الدّاهي: الحقيقة الملتبسة قراءة في أشكال الكتابة عن الذات، شركة النشر والتوزيع المدارس،الدار البيضاء،ط١ ،٢٠٠٧،ص١٣.

والأخيرة يندرج تحتها النموذج الأول مذكرات طبيب شاب للكاتب ميخائيل بولغاكوف لأنها تشتغل على التسجيل الوجداني الفوري للانطباعات، التي قصد منها رصد حركات العالم الخارجي، وتموجات الأنا وارتكاساته تجاه معاصرته ،وأحْدَاثِ عصره. وقد يبدو هذه النوع في شكل يوميَّات كُتِبتْ يومًا فيومًا، أو سنة فسنة، علمًا بأنَّ الاستمرار، والمتابعة، وتجنّب الفجوات والانقطاع، شروطٌ لازمة، وإلا فقدت صفة الفورية، وحلَّتْ محلها الصفة التاريخية، كما فعل جان جاك روسو في الغرب، الذي كتب مذكراته في الثالثة والخمسين، وميخائيل نعيمة في السبعين. ومن أشهر الكتب التي صنفت ضمن هذا النوع، يوميات الحداد: ٢٦ أكتوبر ١٩٧٧ – ١٥ سبتمبر ١٩٧٧، للكاتب رولان بارت، ،إذا ما استمرت الحرب، هيرمان هيسة ،أنا والسوريالية، سلفادور دالي، ومذكرات الأرقش، لميخائيل نعيمة، الأيام لطه حسين، وغيرهم.

ملامح السيرة الذاتية في المجموعة القصصية المعنونة "مذكرات طبيب شاب" للكاتب ميخائيل بولغاكوف.

الملمح الأول: النزعة الإنسانية:

يمكن القول إن النزعة الإنسانية هي تلك الفلسفة التي تضع الإنسان ،والقيم الإنسانية فوق كل شيء. إنها النزعة التي تثق بالإنسان وتتفاءل بإمكانياته، وإنه قادر على صنع التقدم الحضاري. وقد نشأت هذه الحركة الثقافية في إيطاليا أولا في القرن الرابع عشر. ثم انتشرت من هناك إلى بقية أنحاء أوروبا، وبلغت ذروتها في القرن السادس عشر: عصر النهضة بامتياز. وهي تعد الإنسان أجمل الكائنات، وأفضلها، وأرقاها، وتثق به، وبمستقبله كل الثقة.

تنوعت معاني مصطلح الإنسانية وهذا ما جعل المصطلح غامضا، وتشير البدايات الأولى لنشأة هذا المصطلح إلى إن أول من استخدمه هو المؤرخ الألماني وعالم اللغة (جورج فويت) في العام ١٨٥٦ وذلك لوصف الحركة التي ازدهرت لإحياء التعليم الكلاسيكي إثناء فترة عصر النهضة وذلك من اجل إحياء التعاليم الكلاسيكية في النهضة الايطالية""[1]..

النزعة الإنسانية تنحصر في تلك الحركة الإنسانية التي أولت اهتماما بالغا بالإنسان وبشؤون الفكر والفن، ومحاولة التحرر من كل ما هو قديم،كما أنها صاغت تصورا جديدا عن الإنسان حيث هي "نسق من الفكر أو الفعل يمثلان المصالح والقيم والكرامة الإنسانية، هي العامل المهيمن، وتخضع النزعة الإنسانية الولاء للشواغل الإنسانية؛ فهي موقف ذهني يولي اهتمامه المركّز للمناشط الإنسانية لا للعوالم الغيبية أو ما يسمى (المملكة الحيوانية)، ومن الناحية التاريخية كانت النزعة الإنسانية إحدى مذاهب عصر النهضة، وقد ولدت في إيطاليا القرن الرابع عشر، وأكدت جدارة الإنسان الجوهرية وكرامته ومقدراته على النقيض من الرأي المضاد الذي ساد قبلًا، واعتبر الإنسان شريرًا ضئيل القدر، كُتب عليه الهلاك في هذه الحياة وفي الحياة

[1] – جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، ج١ ، دار الكتاب اللبناني، ط١ بيروت ،١٩٨٢، ص١ .

الأخرى كذلك، واعتقد إنسانيو عصر النهضة الذين استمدوا معتقداتهم من دراسة الشعراء القدامى، والمؤرخين والفلاسفة، أن الإنسان هو في الحقيقة مركز الكون، وأنه جدير بأن يحيا حياة العقل والكرامة والأخلاق بل والسعادة أيضا"[1]..

تجلى ذلك بصورة واضحة في مذكرات طبيب شاب لـ: حيث تعكس فنيًا تجربة حياتية ومهنية عاشها بولغاكوف في مشفى الصليب الأحمر في الجبهة حيث التحق الطبيب الشاب فور تخرجه١٩١٦، بالجبهة الجنوبية الغربية،متطوعا في الصليب الأحمر، **ومارس هناك عند خط النار، مهنته الإنسانية** أول مرة، فعالج المرضى، وداوى الجرحى، وأجرى العمليات الجراحية البسيطة"[2].وفي نهاية العام نفسه عين طبيبا وانتقل إلى **ريف (سمولينسك) النائي**، لكنها ليست انعكاسًا آليا أو مذكرات بيوغرافية له بقدر ما أبان أنه ترك لحظات التجربة تنتظر سنين من الزمن لتختمر في ذهنه المتوقد، ولتأخذ شكلها الإنساني العام بحيث تصبح تجربة لكل طبيب مبتدئ في كل مكان. حيث اتصف أدب المذكرات لديه بالنزعة الإنسانية؛ لأنه يهتم بالنفس البشرية، ويسبر أغوارها ويغوص فيها بوصفها واحدة على امتداد العصور، وتباعد الأمكنة فحملت رسالة أدبه قيم الإخاء والمحبة والتسامح إلى العالم كله بوصفه إنسان يحب السلام ويكره الحروب ويمقت كل ما تعرضت له روسيا من كوارث أودت بعدد كبير من مواطنيها إلى الموت والهلاك،وما أكثر الكوارث! التي تكون بسبب الحرب فأول من يتلقى الكارثة هو الطبيب المناوئ بالمشفى المقيم بها حيث عمله كرئيس في مشفى نيكولسك، وإقامته في السكن بنفس المشفى نجد أن المرضى وضحايا الحروب، والحوادث والكوارث يأتون إلى المشفى وهو في إحدى القرى الروسية (ريف سمولينسك) البعيدة ويمكن القول إن إمكانيتها محدودة أعداد كثيرة لا تتحملها المستشفى ولا تكون جاهزة لاستقبالها، وهو الطبيب المقيم ويحركه كإنسان قبل أن يكون طبيب الضمير الذي يؤرقه خاصة أنه شاهد على أحداث عصره، والميثاق الذي أقسم عليه هو من يجعله يدفع بنفسه إلى مجابهة هذه الأعداد

---

[1]– إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، دار المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، صفاقص، تونس، ط١، ١٩٨٦، ص٣٦٩ .

[2]– ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص٦.

من المرضى والضحايا ويبذل قصاره جهده لإنقاذهم على الرغم أنه لا ينتمي إلى أي حزب سياسي فالأحزاب السياسية من وجهة نظره انتهازية حيث إن انتماءه فقط إلى ميثاق الشرف المهني كطبيب يعتز بأخلاقه، وقيمه النابعة من إنسانيته.

مجال الطب بلا شك معقد لدرجة تجعله مثيرًا من كلتا الزاويتين، العلمية والإنسانية، حيث أبان بولغاكوف من خلال من النزعة الإنسانية أن الإنسان بعيد عن زيف السياسة هو الفاعل المهم بضميره النقي؛ ليعبر عن قيم الإنسانية في مهنته وهو حديث التخرج ولا يمتلك الخبرة الكافية فدراسة الطب شيء، وتطبيقه في غرفة العمليات شيء آخر يحتاج إلى الثقافة والخبرة والمهارة في اتخاذ القرار أثناء العملية فوجه جهده إلى الالتحام بأجواء العمل الطبي لم يلتفت إلى مهاترات سياسية من مجموعة مخادعين يتظاهرون بعمل الخير لبلدهم روسيا، وهم في الحقيقة سبب وهن هذا الوطن، فكان بولغاكوف رجلا معاكسا للتيار فلم يأبه للسلطة ومناصبها وأوسمتها، وترك لروحه العنان لتعبر عن مأساة البؤساء ،والمبدعين والفنانين والشرفاء، ولتفضح بسخرية لاذعة وهجائية شديدة زيف المتسلطين والمنافقين."[1]

مذكرات طبيب شاب حكى فيها بولغاكوف بعض مما واجه في المستشفى الصغير الذي اشتغل فيه وهو حديث التعيين مع مساعد واحد وقابلتين، يتحدث عنهم وعن جهله بأدوات الجراحة التي لم يرها من قبل، وكأنه يسقط كل معاناته وسخريته من هذا الوضع السياسي المزري الذي وعد الشعب بأحلام كثيرة وفاقوا على كابوس مزعج يسحق فيه الفرد وتتقيد حريته في عالم بلا إنسانية" وفي واقع الأمر يقول: ،فقد قمت على الرغم من حالة التجمد التي أنا فيها –بسلسلة من الأعمال التي تتطلبها الحياة إذ كلفت اكسبنيا ذات الأنف الحاد، زوجة ايغورينتش بمهام الطبخ لي ،ونتيجة لذلك تنحر الديك تحت يديها، فقد كان لا بد لي من أن أكل شيئا ،وكذلك فقد تعرفت على الجميع هنا: مساعدي ديميان لوكيتس، والقابلتين بيلاجيا ايفانوفنا وآنا نيكولايفنا، وطفت في أنحاء المشفى فاقتنعت اقتناعا تاما أنه مجهز تجهيزا جيدا بالأدوات اللازمة، وبالقدر نفسه، كانت قناعتي بين وبين نفسي بالطبع أنني أجهل الكثير من

[1] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص٩.

هذه الأدوات البراقة الجديدة ولا تكمن المصيبة في أنني لم ألمسها من قبل بل في أنني–بصراحة–لم أرها أبدا".[1]

اهتم بولغاكوف بكل ما يتصل بدعوة الناس إلى الإخاء والحب والحرية المعنوية والأخلاق والمكارم العالية. فيرى أن أهم شيء هو التسامي وتغليب الروحي والنفسي على البيولوجي، والسعي إلى إعلاء الفكر الإنساني، ولما كان الفكر الحر جزءًا أصيلًا من النزعة الإنسانية، وكانت المساواة غاية رئيسة في النزعة الإنسانية ويبقى السؤال الذي يتردد في قصصه دائما لماذا الإنسان يقتل أخيه الإنسان؟!

الملمح الثاني: أنسنة المكان:

تظهر من خلال أدب المذكرات المرتبط بالسيرة الذاتية للكاتب "أنسنة المكان "حيث يجاوز الجمال عالم بولغاكوف القصصي لوجوه الإنسانية، ويجول بنا في عوالمه الساحرة، وينقلنا من غرفة الاستقبال إلى العنبر ثم إلى غرفة العمليات فغرفة الطبيب فالمكتبة ليشمل الأشياء من حوله فيصبح كل شيء جميلا ،المصباح المتلألأ عند البوابة،وشقة الطبيب بما فيها من مكتبة وأرائك وموقد هندي ،حتى الطبيعة القاسية المتوحشة التي كثيرا ما يعانيها الكاتب لقسوتها تتحول في أحيان كثيرة إلى ذات إنسانية رائعة تشعر بالقلق والأسى. يملك الطبيب الذّاكرة والعواطف والخيالات التي يبحث دلالاتها الباطنيّة التي تبدو متناقضة مع ظاهرها،ومن هنا يأتي الإدهاش للصّور السّرديّة وإعادة تخيّلها وفق الواقع السّرديّ النّاشئ بوصفه معادلاً موضوعيّ للواقع إذ ينثال السرد بطريقة تقوم على التداعى الحر للمعانى فى ذهن الكاتب السارد المهيمن على القص الذي يتلاعب بتلابيب الحكي؛ فيراقب، ويفسر، ويعلل؛ حيث يجعلنا في حالة دهشة مستمرة.

وسط هذه الأجواء القاتمة نجد الطبيعة من حوله كل ما فيها يوحي بالجمال حيث" كان الهواء يأتي تلقائيا عذبا يندفع عبر دعامات الجسر الخشبية ... استقبلنا الوليد الذكر، استقبلنا روحا حية وأنقذنا الأم.

[1] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص١٧.

وتأتي قصة العتمة المصرية وما زال الطبيب يأنس بالطبيعة وتظهر أنسنة المكان في كل ما حوله" وفي الوقت الذي تعوي فيه العاصفة، ويغمر الثلج الأرض يمكننا أن نرى على الشاشة كيف يسبح القصب، وتتمايل أشجار النخيل وتتلألأ الجزر الاستوائية"[١]

وتحكي قصة العتمة المصرية عن معاناة الطبيب المستمرة وكأنه يعيش في العتمة من كثرة الشعور بالوحدة "نحن لا نرى لأشهر كاملة أحدا غير مئات المرضى إننا نعمل في الثلج ،وندفن فيه ... ".[٢]

كانت العتمة المصرية خلف النوافذ كأنها ستارة من الزوابع المزعجة وهكذا يعيش حياته القاسية في هذا المكان النائي كأنه غابة.

أنسنة الطبيعة من حوله قد تكون ملاذا؛ لأن يمنح الأمكنة والأشياء الحياة فعندما يبث فيها الحياة، تملأ عينيه بهجة بها ويأنس بها في وحدته فالعاصفة كأنها إنسان والحوذي كأنه شبح في ليلة ثلجية باردة ملبدة بالعواصف "هذا هو قدرنا يا عم يقصد الحوذي الذي يسوق العربة في العاصفة– لكن لا وقت لدينا للتعبير عن الاكتئاب هنا، وإلا فإننا سنهلك فعلا،لقد توقفت الجياد قليلا، ونالت نصيبا من الراحة،ويجب علينا أن نتابع السير ، اذهب أنت وقد الجواد الأمامي من لجامه،وسوف أوجه أنا البقية من عندي،يجب أن نخرج من هنا بسرعة قبل أن يطمرنا الثلج،وانطلق الحوذي إلى الأمام، وبدت أذنا قبعته شديدتي الوضوح– يتعثر ويتخبط حتى وصل إلى الحصان الأمامي، فقد بدت في عملية إقلاعنا طويلة لا تنتهي، كانت العاصفة تصفعني بثلجها الجاف، وبدا الحوذي مثل الشبح يتأرجح أمام عيني"..[٣]

الملمح الثالث: التأريخ الزمني:

التأريخ الزمني سمة غالبة على مذكرات طبيب شاب حيث الحرب الأهلية في كييف. لقد بدأ بتدوين قصص هذه المجموعة عام١٩١٩، عندما كانت الحرب

---

[١] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص٦٤.

[٢] – السابق، ص٦٥.

[٣] – السابق، الصفحة نفسها.

الأهلية في كييف على أشدها. وبينما كانت دماء المأساة تسفك في الشوراع والأزقة... كانت هناك دماء أخرى تقطر على طاولة الطبيب الجراح؛ لتبشر ببرء المريض، أو بولادة واعدة، وهي عند بولغاكوف دماء الأمل والشفاء والمستقبل... أما الرصاص الذي يقتل الأبرياء في الشوارع، ويوجهه الإنسان نحو أخيه الإنسان"[1].

الملمح الرابع: فضح الأنظمة الحاكمة:

أراد بولغاكوف الشاب الذي بلغ الرابعة والعشرين من عمره وتعيَّن رئيسًا في مشفى نيكولسك أن يترك للخلف شهادة فنية عن الكوارث التي عاشتها روسيا، والتي كان شاهدًا عليها، ومشاركًا فيها بغير إرادته، فكانت شهادته نابعة من رؤيته الخاصة، وهي رؤية لم تكن ملتزمة إلا بالفن الأصيل،والأخلاق السامية،رؤية ساخرة متهكمة تنتقد أخلاقيات البيروقراطية الزائفة وتعري انتهازية السياسة ،وتنزع عنهم زيهم الرسمي وأوسمتهم وربطات أعناقهم ليظهروا من داخلهم عارين أقزاما أمام العيون ... فلم يكن بولغاكوف ملتزمًا بحزب أو سياسة ،لكنه كان فنانا وإنسانا صادقًا، يضع فنه وإنسانيته فوق كل التزام،تحدوه أغنية الضمير النقي، ولا يغريه الجاه أو النسب"[2]. على الرغم من الصعاب التي يواجهها كل يوم والعمليات التي يقوم بها لعلاج المرضى كونه طبيب مبتدئ لأول مرة وقد يذاكر في كتاب العمليات وقت العملية ويحاول أن يستوعب معلومات كثيرة عنها في وقت قصير يسرع بعده لدخول غرفة العمليات التي يستمر فيها ساعات طويلة كل يوم وبالرغم من ذلك تهفو نفسه الشفافة إلى الاستمتاع ببهاء الكون، وتذوق حلاوة الحياة تناسيا للموت المحدق به في كل مكان.

الملمح الخامس، حب المغامرة:

يتحدث بولغاكوف عن الخطوات الأولى التي يخطوها طبيب شاب في ممارسة مهنة الطب، إنها خطوات مغامرة وبريئة ،شجاعة ومترددة في وقت واحد. بطلها الرئيس طبيب شاب تخرج حديثا من مقاعد الدراسة، في قصة "التعميد

[1] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص١١.

[2] – السابق، ص٨.

بالتحويل" يحكي عن ولادة متعسرة لامرأة حامل أوشكت على الموت وقام بإنقاذها، "لقد كنت في الحقيقة أو أن أقول بالنسبة إلى الأم لم أؤذها أثناء العملية هذا هو الشيء الذي كان يمزق قلبي إذ أن معرفتي بعلم التوليد ما هي إلا مقتطفات جمعتها من الكتب وهي أبعد ما تكون من معرفة الحاذق المختص ،التمزق لكن كيف يمكن معرفته؟ ومتى ستتاح لنا إمكانية اكتشافه الآن يا ترى أم يمكن أن تكون فيما بعد ""[١]

كما أنه الطبيب الذي رماه قدره بعيدا في الريف النائي وسط غابات البتولا اللامتناهية والثلوج البيض التي تغمر الكون وتحيل الأشياء إلى لون واحد ...رماه القدر ليضع تفاؤله ومثاليته الأخلاقية وشبابه ومرحه ،وقلة خبرته الحرفية في مواجهة صعوبات الجهل والتخلف والسحر والشعوذة ...فما كان عليه إلا أن يجابه ويخوض حربًا ضروسًا، يثبت فيها وجوده وأحلامه، ويدمر خصميه العنيدين:الجهل والمرض"[٢]

المذكرات. مستلهمة من الطرائف والمغامرات التي مر بها المؤلف، من التوليد للعمليات الجراحية، لإنقاذ أشخاصٍ من موت مُحقق، مُظهرًا الجوانب الإنسانية لمهنة الطب أكثر من الجوانب العلمية، التي لم يتحدث عنها إلا لتوضيح حالات بعض المرضى وخاصة الذين يتلقفهم الموت ويحاول الطبيب إنقاذهم.

الطب تطور كثيرًا بلا شك، المواقف التي صادف الطبيب ربما حاضرة ليومنا هذا، لكن طرق التعامل معها ستختلف بلا شك، إلا أن الجوانب الإنسانية لمهنة الطبيب لا يُمكن أن تزول أو تتغير، هي مهنة صعبة، يُمكن أن تضع مسؤوليات كبيرة ثقيلة على كاهل المُمارس، لذا يبدو لي أن مذكرات طبيب شاب كتابًا يستحق القراءة لكل طبيب جديد، ولكل شخص له فضول لمعرفة القليل من مقدار التعب الذي قد يمر به طبيب أو شخص له علاقة بهذا المجال ،وخاصة وهو في بداية حياته **ولا يمتلك من الحياة إلا صدقه ونقاء سريرته.**

[١] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص٤٢.

[٢] – السابق، ص١١.

الملمح السادس: توثيق الحدث لحظة وقوعه:

أحيانًا كثيرة يقع الحدث عندما يقع، أي أنه وبلا مقدمات أو مدخل، يتحدث المؤلف الطبيب عن الحدث كيف عاشه في لحظة وقوعه، ولعل ذلك جيد، بما أنه طبيب وحيد وليست كل الحالات والأحداث تستحق أن يتم شرحها في الكتاب.

الملمح السابع: "التكثيف":

مذكرات طبي شاب تُعطي شعورًا بأنها قصيرة، وذلك لأنه وضع لمقدار التفاصيل التي يُعطيك حدودًا أيضًا. القصص فيه تُظهر أكثر الجانب الإنساني لمهنة الطب، والتيه والارتباك الذين يرافقان طبيبا جديدًا، خاصة أنه بلا رفيق ذو خبرة، القرارات التي اتخذ والتي أحيانا تضع المرضى بين الحياة والموت، لا يُمكن سوى أن تزيد الأطباء تقديرًا.والتكثيف وإخفاء بعض التفاصيل لم يكن صائبا في بعض الأحداث؛ لأننا نجدها مثيرة جدًا ورغبت لو أن المؤلف أعطاها المزيد من الوقت ليضم المزيد من التفاصيل إليها، أسماء بعض الأمراض والحالات مذكورة، وأتفهم أنه لم يُفصل أكثر بهذا الخصوص، وهو ما جعل كتابه ممتعًا أكثر مما هو مفيد لشخصً له من الفضول ما يدفعه لمعرفة المزيد عن الحالات التي مرت على يد الطبيب.

الملمح الثامن: محدودية المعرفة الإنسانية:

وقد كرر في نهايتها محدودية المعرفة الإنسانية،وطلاقة المعرفة الإلهية، فالقصة الأولى (الحنجرة الحديدية) تحكي قصة طفلة رائعة الجمال فتن الطبيب بجمالها الملفت للنظر وكانت تعاني من الاختناق بمرض الخانوق وقد أنقذها الطبيب من الموت. "شاهدت طفلة في عامها الثالث، ونسيت في تلك اللحظة علم العمليات الجراحية كليًا، ونسيت وحشتي والحِمل الجامعي الذي يثقل كاهلي، نسيت كل شيء تماما أمام جمال هذه الطفلة الأخاذ، بأي شيء يمكنني مقارنتها؟ لا يوجد أطفال بهذا الجمال إلا على علب الشوكالا فقط، كان شعرها على مجعدًا كخواتم كبيرة،ولونها كلون الحنطة الناضجة، وعيناها واسعتان زرقاوان ،وخداها كخدي دمية ،حتى الملائكة لم ترسم بهذا الشكل،لكن ثمة كدر غريب عشش في قاع عينيها ،وفهمت أن هذا الشيء الغريب هو الخوف –لم يكن بإمكانها أن تتنفس ستموت بعد ساعة فهمت

بشكل لا ريب فيه، فانقبض قلبي انقباضا موجعًا، لاحظت أن المجاري الهوائية تغور تحت حنجرتها، وأن العروق تنتفخ عند كل شهيق، وأن لون الوجه الوردي قد تحول إلى ليلكي باهت، لقد فهمت معنى تغير اللون، وفهمت فورا أين تكمن المشكلة وقد كان تشخيصي الأول صحيحا.""[١]

فالطفلة أنقذها الطبيب بالعناية الإلهية التي وجهته يسير عكس التيار، ويجرب طريقة جديدة لم يعهدها من قبل؛ لتكون سببًا في إنقاذ الطفلة البارعة الجمال على حد قول الطبيب.

والطفلة الأخرى أنفذها أيضا بالعناية الإلهية في قصته المنشفة ذات الديك "ورجوت القدر ألا يغيبها عن الوجود في نصف الساعة القادمة.[٢]

مواقف وطرائف في حياة الطبيب فالحياة مدرسة تصقل بها خبراتنا ومعارفنا الحياتية "قلت لمساعدي جهزوا لعملية البتر نظرت القابلة نحوي نظرة مفترسة ،أما مساعدي فقد لمعت عينيه إشراقة تعاطف معي ثم انهمك في تحضير أدوات الجراحة وأشعل وابور الجاز، ربع ساعة مضت رفعت جفنها البارد ونظرت برعب شديد في عينيها المنطفئة، لم أستطع فهم أي شيء كيف يمكن لنصف جثة أن تحيا وتدفقت على جبيني قطرات العرق المالح المندفعة من تحت القبعة البيضاء..أمسكت المبضع محاولا تقليد شخص (لم أر في حياتي الجامعية عملية بتر واحدة) ورجوت القدر ألا يغيبها عن الوجود في نصف الساعة القادمة والتمت فيما بعد في العنبر بعد إنهاء العملية"..[٣]

ما أقسى الحياة وأقسى تبعاتها على قلب طبيب شاب حاول أن يسجل لحظاته في هذا الريف النائي!

---

[١] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب،ص١٧

[٢] – السابق، ص١٠٨.

[٣] – السابق ،ص١٠٨.

الملمح التاسع لأدب المذكرات عند بولغاكوف، هو السخرية:

الأمثلة كثيرة في مذكرات طبيب شاب التي تدل على السخرية كوسيلة للتنفيس عما يراه ويشاهده كل يوم ويمر به ،في القصة الثالثة (العاصفة الثلجية) تتحول تحت ريشة الفنان المبدع إلى وسيلة للتخلص من الذئاب المفترسة التي توشك أن تنقض على المزالج،وتجهز على الطبيب والخوذي ... ومن شدة فرحتي أطلقت طلقتين من البراونينغ نحو الخلف فهربت الذئاب"[1]. ويقول:"وتذكرت بعض القصص، ولسبب ما شعرت بالكره تجاه ليف تولستوي فكرت ،كانت حياته هانئة في قرية (باسنايا بوليانا) إذ لم يأخذوه على ما يبدو إلى بيوت الموتى... وشعرت بالإشفاق على رجل الإطفاء كما أنني عانيت أنا نفسي شدة الخوف الموحش ولكنني خنقته في قلبي""[2].

ويحاول أن يجد متنفسا يضحك ويسخر منه و يخرجه من هول ما يرى في العاصفة ،فيزداد حنقًا على تولستوي الذي كتب مذكراته ومعظم مؤلفاته في ريف هادئ لا يعج بالعواصف ولا بالموتى والآن وهو على هذه الحال المزرية يختنق قلبه من الخوف، ويحاول ألا يظهر ذلك لرجل الإطفاء وقد زاد شفقة عليه لأنه كاد أن يموت من هذا الخوف الموحش بسبب العاصفة.

ويتألم الطبيب من جراء ما يحدث حوله ويسخر من تكالب الأحداث حيث **يحكي في قصة العاصفة الثلجية عن امرأة ماتت ضحية وهي بصحبة زوجها المحاسب** "تناهي إلى سمعي بكاء المحاسب عبر الباب المحكم الإغلاق ،وظهرت هيئة امرأة ترتدي الأبيض عند كتفي، كانت غرفة النوم مضاءة نصف إضاءة ،وقد غطوا المصباح من الجانب بقماش أخضر وتحت الضوء الأخضر توجه المخدة وجه أصفر اللون، شعر أشقر تفرق، وتدلت خصلة فوق الوجه، كان الأنف حادا ،وامتلأت فتحتاه بقطن غدا أحمر من النزف... إنني أكره الموت، واستطعت كسر حباية الزيت الكثيف، وسحبهما في المحقنة وعبثا حقنت الفتاة في يدها حقنا ميكانيكيا فاختلج

[1] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص٦٢.

[2] – السابق، ص٥٩.

فكها الأسفل ثم ضغط على الأعلى، ثم تدلى وارتعش الجسد تحت الغطاء وكأن البرد لسعه. ضعف النبض تحت إصبعي ثم تراخى إلى أن أختفت النبضة الأخيرة همست الممرضة في أذن الطبيب –لقد ماتت""[١]

أيضا: "أخذت أشفق على نفسي من حياتي الصعبة فالناس نيام الآن، والمواقد مشتعلة، أما أنا فلم أستطع أن أتم استحمامي، تحملني العاصفة كورقة، وهكذا سأصل إلى البيت، وهناك لن يكون الأمر أفضل فسيأخذوني من جديد إلى مكان ما ،سأبقى طائرا في العاصفة على هذا النحو، **أنا وحيد والمرضى آلاف**، وهكذا سأصاب بالتهاب الرئتين ،وقد أموت هنا.وبينما كنت أشكو نفسي لنفسي ضعت في العتمة دون أن أدري كم من الوقت قضيت فيها لم أجد نفسي في أية حمامات ولم أجد إلا البرد الذي قرصني، والذي أخذ يشتد ويشتد"."[٢]

وقصة المنشفة ذات الديك تتسم بالسخرية حيث يحكي الطبيب عن صعوبة الطرقات التي حاول الاعتياد عليها برفقة الحوذي الذي لا ذنب له في مشاعر الغضب التي تجتاحني بسببه مع أن لا ذنب له في صعوبة الطرقات "يجب اعتياد السفر على هذه الطرقات...، قلت هذا وأنا أحملك بحقد إلى الحوذي،دون أن أعرف سببا لحقدي هذا، علمت أنه – وبالحق يقال– لا يحمل ذنب هذه الطرق".[٣]

يسخر من مشاعر الغضب التي تجتاحه وهو برفقة الحوذي وسرعته المجنونة في الطرقات ويأتي الحدث الرئيس في القصة الآن رأى الطبيب المنشفة ذات الديك التي تدثرت بها الفتاة التي قام بعملية بتر لأحد قدميها بعد أن أوشكت على الموت وشبهها الطبيب (كيف يمكن لنصف جثة أن تحيا) حيث بعد دقائق قليلة كنت في الشقة المخصصة للطبيب أجلس في غرفة مكتبي ،بالقرب من المصباح الأخضر كان البيت صامتا، انعكس وجهي الشاحب على الزجاج الأسود لا لا أشبه ديمتري الكذاب لكنني على ما يبدو شخت قليلا،ثمد تجعيد بين الجانبين،

---

[١] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص٥٤.

[٢] – السابق، ص٥٨.

[٣] – السابق، ص١٠٨.

سيقرعون الآن الباب ويقولون ماتت ،سأذهب وألقي عليها نظرة الآن سيقرع الباب، وقرع الباب كان هذا بعد شهرين ونصف...فدخلت فتاة برجل واحدة تتكئ على عكاذين، وترتدي تنورة فضفاضة خيطت أطرافها بكشاكش حمر كانت فائقة الجمال... قلت لها في موسكو في موسكو وأخذت أدون العنوان،هناك يصنعون الأعضاء الصناعية، وسيصنعون لك ساقا عند ذلك أخرجت –وهي تتكئ على عكاذين لفافة قماش وفردتها **فظهرت منشفة ناصعة البياض طرز عليها على نحو بدائي ديك أحمر ... نعم هذا ما كانت تخبئ تحت مخدتها عندما كنت أفحصها** نعم أذكر كيف كانت تضع الخيوط على الطاولة". [1]

السخرية مرآة صادقة للحقيقة من ناحية كما أنها طريق للتعبير عن الاضطرابات، والمساوئ، والسيئات، وعيوب الفرد والمجتمع من ناحية أخري. ومن هذا المنطلق يدافع الطبيب في مذكراته عن القيم الإنسانية إذ يدافع عن المعنويات في عصره ،مبينًا عدم استقرارها، حيث المشاعر الإنسانية ضد الخوف، والخرافات مشيرا إلي مواضع الظلم حافزا علي الفهم كما أنه يوجّه أحاسيس الإنسان نحو الآلام واكتشاف مواضعها مستنيرا بالضمير في كل ما يفعل.

الملمح العاشر: الوحدة والفقد:

يشعر الطبيب بالوحدة دوما حيث بين الحوذي والممرضة والطبيب حياة مليئة بالمعاناة وما أقسى إحساس الطبيب عندما يموت المريض ولا يستطيع أن يسعفه أو يأتي وقد شارف على الموت حقا مشاعر تنبض بأنين الفقد والوحدة لأنه بعد هذا اليوم الملبد بالعواصف، يرجع الطبيب إلى منزله الرائع ولكن يظل وحيدا ويحاول أن يقرأ ولا يجد إلا الصراخ، وصرخت بصوت مدوٍ، يشاركه حالة الحنق والغضب التي بداخله بعد يوم عاصف ومريضة ماتت وكل ما حوله يلتحم معه في وحدته"وقف رجل الإطفاء في منتصف الجزء السفلي من بيت الطبيب الرائع ،ووقفت أنا في أعلاه، وبقيت اكسينيا التي ترتدي معطفها المصنوع من فرو الضأن في الأسفل قال الحوذي مهما أعطيتموني من ذهب فلن أذهب ثانية ..ولم يتم عبارته،

[1] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ص١٢٥.

وشرب كأسا من الكحول شربة واحدة. ثم التفت إلى اكسينيا وأضاف يا لها من ذئاب ضخمة وسألتني هل ماتت؟ ألم تنقذوها؟ فأجبت دون اكتراث، لقد ماتت...بعد ربع ساعة هدأ كل شيء في رأسي، وأطفئ النور في الأسفل،وأصبحت وحيدا في الطابق العلوي، ولسبب ما ضحكت ضحكا متشنجًا، ثم حللت أزرار البلوز ،وعدت فزررتها ثانية، ومشيت نحو رفوف المكتبة وتناولت مجلد الجراحة، أردت أن أعرف شيئا عن كسور الجمجمة ،لكنني طرحت المجلد ،وصرخت بصوت مدوٍ مهما أعطيتموني ... لكن بعد الآن لن أذ هـ ب ، ومرت الرياح فأصدرت أصواتا كالرعد ثم صفرت عبر المزاريب وخرجت منها ثم خشخشت على الشباك ،ثم ابتعدت ودقت عقارب الساعة، ستذهب...ستذهب".[1]

العاصفة الثلجية قصة تشعّ **باتّجاهات متعدّ**دة من خلال الرّمز والدّلالات التي نتلقاها عبر مخيلتنا للصّور السّرديّة المتدفّقة وتحقيق وظيفة السّرد بتشكيل متوالية حكائيّة للواقع النّصيّ؛ لنقل انفعالات الطبيب لكل ما يشاهده ،وما يحيط به ويحاول أن يفسره ويتعامل معه بشكل إنساني.

المنشفة ذات الديك تحكي قصة من واقع الحياة قصة فتاة بسيطة ضحية العلاج الخطأ، ثم استدعى أهلها الطبيب جاء وهي كأنها على فراش الموت، ويقوم بعملية بتر ستصير بعدها بعكاذين ،وستلبس أعضاء صناعية وستهدي الطبيب منشفة عليها ديك أحمر الحياة كالمعجزة حقا ينبغي أن نعيشها بحلوها ومرها.

هذه النصوص السردية في تلك المجموعة القصصية نجدها مسكونة بالحيرة والدهشة؛ حيث احتوت المجموعة على تقنيات حداثية كطرائق الحكي، وانفتاحية النص، كما أنها حافلةٌ بالحدوس اللماحة التي تجتلي واقعها من زوايا وأبعاد تعطي الدليل على قوة الانسجام والتآلف بين الوعي المبصر، والحس الإبداعي النابض لصاحبها وبحسب باشلار: "يوجد نمو كينونة في كل وعي لشيء ما"؛ لأنّ الوعيَ معاصرٌ لصيرورة نفسانية نشيطة. حيث تشي المجموعة بحضور وعيٍ متعاظمٍ يعقد

[1] – ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب،ص٦٣.

القصّ ويجريه على أنين البوح عبر خيوط دقيقة واصلة بين أطياف الذاكرة ،وهذيان اللحظة.

تحكي مذكرات طبيب شاب حكاية المثل الأخلاقية ،حكاية البهجة بإثبات الذات، والفرح بتجاوز قلة الخبرة والتجربة والانتصار على المرض والحيلولة دون موت إنسان ما، تحكي عن روح للشاب المثالي المتفائل المنتصر دائما الذي يرى كل شيء جميلا ومثاليا، حيث يضئ الطبيب في مذكراته مشعلا من الأمل و يحفز الكاتب في هذه المجموعة القصصية أنه يجب على أي إنسان أن يستكشف ويجتهد ويبحث في سر وجوده وحياته. ويرى الحياة جميلة ويستحق أن يعيشها الإنسان بما فيها من تناقضات، وصراعات. كما يجب على الإنسان أن يتحلى بالأمل ويواجه الصعوبات والتحديات في الحياة، أبرز ما يميز الإنسان هو وجود الفِكَر المجردة والخلقية والروحية فيه، وهو إن فخر فإنما يفخر بها؛ إذ إن حقيقة وجودها لا تقل أهمية عن حقيقة وجوده، وهي التي تعطي لهذا الوجود قيمته، ومن ثم إذا أردنا أن نعطي لهذه الحياة معنى؛ فيجب أن نعيد لهذه الفكر القيمةَ العلمية والعقلية.

نستخلص من "مذكرات طبيب شاب" الآتي:

١- دوّن بولغاكوف مذاكرات طبيب شاب كنوع من المذكرات الشخصية؛ لتكون في ريف سمولينسك شاهدة على أنبل معاني الإنسانية التي عاشها هناك، فقد رماه القدر؛ ليضع تفاؤله ومثاليته الأخلاقية وشبابه ومرحه، وقلة خبرته الحرفية في مواجهة صعوبات الجهل والتخلف والسحر والشعوذة.

٢- في تلك المجموعة القصصية "مذكرات طبيب شاب" للكاتب الروسي ميخائيل بولغاكوف نجد أن النزعة الإنسانية ثورة فكر جاءت لتؤكد قيمة الإنسان الذي كلما اقترب من ذاته اقترب من إنسانيته، نحن أمام عالم مسكون بالتنوع والتجاور والنظر المختلف للواقع والأشياء، وهو العالم الذي ينحاز إلى السرد السلس، وتداعي المعاني، والانتقالات الذكية.

٣- احتوت المجموعة على سبع قصص تفيض بالمشاعر الممتزجة بين الضحك والبكاء، والخوف والأمن، والشدة والفرج، والحب والكره، والهزل والجد، والصحة والمرض، والحزن والسعادة، لتفيض بكل ما يحتمله الإنسان وما يشعر به.

٤- اشتملت مذكرات طبيب شاب على عشرة ملامح لأدب المذكرات المرتبط بسيرة الطبيب الذاتية تميزت به مذكرات طبيب شاب كالآتي: النزعة الإنسانية، أنسنة المكان، التأريخ الزمني، فضح الأنظمة الحاكمة، حب المغامرة، توثيق الحدث لحظة وقوعه، التكثيف، محدودية المعرفة الإنسانية، السخرية، الوحدة والفقد.

النموذج التطبيقي الثاني

صلاة تشرنوبل، للكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش[1]..

يطرح أدب الشهادات تساؤلات كثيرة حول علاقة الأدب بالواقع، وبالتاريخ ولهذا النوع من الأدب أشكالا مختلفة، فهو يجمع بين السيرة الذاتية واليوميات، والريبورتاج الصحفي وكتابة التاريخ.

تندرج صلاة تشرنوبل تحت النثر الوثائقي المختص ب الشهادات الشخصية أوالمونولوجات الداخلية للشخصيات حيث وصفت الكاتبة كتابها بأنه ليس عن تشرنوبل، بل هو عن عالم تشرنوبل.جمعت فيه حكايات الناس على مدار عشرين عامًا تجمع أحاسيس ويوميات وأفكار الناس، التقت بموظفين سابقين بمحطة الطاقة، وعلماء، جنود، أطباء، نازحين، وافدين، ربّات منازل، صحفيين، مصوّرين.

النثر الوثائقي يتبين من تحديد الأدب الوثائقي الوارد في معجم الموسوعة الأدبية (موسكو–الموسوعة السوفيتية ١٩٨٧ ص،(٩٨–٩٩) والذي يعتبر في أوساط

---

[1] – سفيتلانا أليكسيفيتش، فهي صحافيّة تحقيقات وكاتبة بيلاروسية. ولدت عام ١٩٤٨ فى أوكرانيا السوفيتية الاشتراكية في بلدة ستانسلاف غرب أوكرانيا لوالد بيلاروسي وأم أوكرانية، وسرعان ما عادت مع والديها إلى بيلاروسيّا بعد انتهاء والدها من الخدمة العسكرية.وتخرجت من كلية الصحافة في جامعة مينسك (١٩٦٧–١٩٧٢). عملت في جريدة محلية بمدينة بريست بالقرب من الحدود البولندية، بسبب آرائها المعارضة، وفي مراحل تالية من حياتها، عاشت متنقلة بين إيطاليا وفرنسا وألمانيا والسويد.ويعدّ كتابها "أصوات من تشرنوبل" أشهر كتبها، ومن أعمالها: "وجه غير أنثوى للحرب"، الذي أعتبر براهين على مئات النساء المحاربات في الحرب العالمية الثانية. وقد صدر الكتاب بعد سنتين من كتابته وبعد أن قصت الرقابة الكثير منه. ثم أعيد نشره بعد إضافات واستعادة ما حذفته الرقابة بعد عشرين عامًا. كما صدر لها كتاب "فتيان الزنك" (رواية وثائقية عن الحرب الأفغانية) ١٩٩١، نقلها إلى العربية مؤخرًا عبد الله حبه، وصدرت عن "دار ممدوح عدوان" في دمشق. صُنّف كتابها الأول "لقد غادرت قريتي" ككتاب "معادٍ للشيوعية" وتمّ إتلافه من قبل السلطات السوفيتيّة!. ولها كتاب بعنوان: "نهاية الإنسان الأحمر"، نالت عنه جائزة "ميديسيز للدراسات" في فرنسا، كما وضعته مجلة "لير" المتخصصة بالكتب، كأفضل كتاب لعام ٢٠١٣. وحصلت " أليكسيفيتش" كذلك على جوائز كثيرة منها جائزة "هيردر" عام ١٩٩٩، وجائزة "دائرة نقاد الكتاب الوطني" عام ٢٠٠٥، وذلك تقديرًا لكتابها "أصوات من تشرنوبل"، وجائزة "السلام للكتّاب الألمان" عام ٢٠١٣.

العلماء والخبراء الأكثر دقة وصوابا، أن الأدب الوثائقي ومنه الرواية الوثائقية ينتمي من حيث المحتوى والأساليب وطرق البحث،وشكل السرد إلى صنف النثر الروائي ولهذا يستخدم بشرط انتقاء المادة الوثائقية بشكل فني، لأن نوعية الانتقاء والتقويم الجمالي للوقائع الواردة المأخوذة من المجال التاريخي يوسعان الطابع المعلوماتي للأدب الوثائقي، ويخرجانه من مجال العمل الوثائقي الإعلامي والصحفي، وكذلك من النثر التاريخي؛ حيث إن الأدب الوثائقي هو نثر روائي يدرس الأحداث التاريخية وظواهر الحياة الاجتماعية عن طريق تحليل المواد الوثائقية التي تتجدد كليا أوجزئيا في سياق السرد. وقد ارتبط به الشهادات الشخصية، والمذكرات،واليوميات، والسير الذاتية، وأدب الرحلات وغيرهم.

ونلتفت إلى أن ما شهدته روسيا، وبلدان شرق أوروبا فى ستينيات وثمانينيات القرن الماضى، كان فى مقدمة أسباب ذيوع وانتشار النثر الوثائقى، وتعد صلاة تشرنوبل من هذا النوع، وهو ظاهرة حديثة نسبيًا في الأدب الروسي، وقد اعتمدته لجنة جائزة نوبل من الأجناس الأدبية المهمة لمكافأة رموز الثورات الملونة، حيث كان ضمن أسانيد منح الكاتبة الصحفية البيلاروسية سفيتلانا ألكسييفيتش جائزة نوبل للآداب لعام ٢٠١٥، وهى التى لم يكن ثمة من يتوقع أن تحظى كتاباتها بمثل هذا التقدير العالى. ومن المعروف أن أليكسييفيتش تخصصت أكثر، فى كتابة الموضوعات والتحقيقات الصحفية ذات الطابع الاجتماعى، وإن كانت الشواهد تقول إن الكاتبة فازت بجائزة نوبل للأدب، لأسباب تتسم فى معظم جوانبها بطابع سياسى، وهو سرعان ما تجلت نتائجه فى وقوف سفيتلانا ألكسييفيتش الى جانب المعارضة البيلاروسية فى محاولة الإطاحة برئيس بيلاروس ألكسندر لوكاشينكو فى صيف العام الماضى.

وعندما أتناول بالبحث صلاة تشرنوبل نجدها احتوت على النثر الوثائقي حيث اشتمل الكتاب على شهادات كثيرة اتسمت بالشهادات الشخصية واليوميات والمونولوج الداخلي لشهود عيان على الكارثة النوويّة في محطة تشرنوبل وما بعدها من آثار مدمّرة، وتناولت كل شهادة ضحية أو متضررًا؛ ليحكي تجربته الخاصة بلغته الخاصة، دون أيّ تدخل من الكاتبة في ما يقال.

- ملامح النثر الوثائقي المرتبط بأدب الشهادات أو المونولوجات الداخلية الغالبة على صلاة تشرنوبل:

١- الاستلاب:

أ- الاستلاب بمفهومه الواعي قد جسدّ هذا النمط طبقة الحكام، والسياسيين والطبقة المثقفة الثورية المتمردة، في صلاة تشرنوبل؛ لأنها واعية ومدركة لحال الاستلاب الذي أفضت إليه، تبدأ الشخصية بالبحث عن الذات بمخالفة الواقع السلبي،حيث احتلت مساحة واسعة من الكتاب، وقد عمدت الكاتبة إلى وصفها وصفا دقيقا على مستوى الشكل، وعلى مستوى الفكر والأيديولوجية والسلوك والأفعال، وفي متن الكتاب نقف عند حديث "أليكسيفيتش"، عن أساليب السلطة السوفياتية في تضليل الناس، وإيهامهم أن النظام قوي لدرجة لا تستطيع أي كارثة أن تؤثر فيه، تقول: "إن البلاد لم تكن مستعدة للكارثة النوويّة"، وإنهم كانوا أبناء زمنهم، ووثقوا بما علموهم إياه بأن المحطات النوويّة السوفياتيّة هي أكثر أمانًا في العالم، ويمكن بناؤها في الساحة الحمراء. مشددة على السؤال عن المذنبين، لا أولئك الذين تمت محاكمتهم محاكمة صورية، ليتم التعتيم على الكارثة، والعمل بطريقة دعائية بائسة لتحويلها انتصارًا للقوات الحربيّة السوفياتيّة في فترة الحرب الباردة. وتصف مفارقات من تغيير تفكير الناس. وهي لا تخفي حنقها على حال الإنسان في دول الاتحاد السوفييتي سابقًا، حيث رموا الناس في آتون الكارثة، "مثلما رموا الرمل على المفاعل". لقد استخدموا الناس مثل رجال آليين.

وتؤكد الكاتبة أنه في الحقيقة أنت لن تعد تهتم بأسباب الكارثة أو حتى المتسبب فيها، أنت **ستدرك أن الأهم من ذلك هو الناس**...هو الجزء الوحيد الذي تناساه الجميع! لهذا قامت الكاتبة بنقش هذا الوجع على أرواح من سيقرأ الكتاب آملة أن يظل ذلك حاضرًا بشكل دائم في عقول البشر. أو كما تقول:"إن الذي بقي ولم يتغيّر هو المعاناة الإنسانية؛ رأسمالنا الوحيد الذي لا يتجزأ!". وما زالت الكاتبة تبرهن في صلاة تشرنوبل أن الكارثة كانت مروّعة، حتى أن "الاتحاد السوفييتي" حاول حينها إخفاء كل المعلومات المتعلّقة بهذا النوع من الانفجارات، اختفت من المكتبات الكتب

التـي تتحـدث عـن "هيروشـيما" و"ناغـازاكي. لا نصـائح، لا معلومـات، لا صـحافة، والسلطة لا تقول شيئًا. الأطباء صامتون، ويظهر هذا بوضوح في شهادة رجل فقد ابنته، ويقول إنها ماتت في السابعة، وهم يريدون منه أن يصمت وينتظر"[١].

ومن هذا النوع الأول أيضا ونمثل في الكتاب بالطبقة المثقفة المتمردة على الصمت فيحكي أحد المنظمين لمظاهرة شهاداته عن منظمة أطفال تشرنوبل وهي أول مبادرة مدنية من دون أذن من أحد في الأعلى التي بسببها شعر هو وأقرانه "كيف أفهم ذلك الآن لقد حررنا تشرنوبل ... لقد تعلمنا أن نكون أحرارا". حيث يقول: "عدت من جولاتي كنت ممتلئا حدثت زوجتي تخصصها لغويات لم تمارس السياسة من قبل، ولا الرياضة، ولكنها هذه الأيام تسألني دائما، السؤال نفسه، ماذا بإمكاننا أن نفعل، وما الذي سيحدث لاحقا؟ وبدأ القيام بعمل، عمل من وجهة نظر التفكير السليم غير ممكن، الإنسان قادر أن يتخذ قرارا بهذا الشأن فقط في حالة الهزة ،في لحظة التحرر الداخلي الكامل وحينها كان زمن غورباتشوف، زمن الآمال، الإيمان! لقد قررنا إنقاذ الأطفال، وفتح العالم وأن نوضح في أي خطر يعيش أطفال بيلاروسيا وأن نطلب لهم المساعدة، وأن نصرخ، ونقرع النواقيس كلها! السلطة صامتة، إنها تخون شعبها، لن نصمت وبسرعة اجتمع جمع من المساعدين الموثوقين وذوي الفكر الواحد يجب أن نتحرك، ماذا تقرأ؟ سولجينيتسن، بلاتونوف...عملنا لمدة عشرين ساعة في اليوم يجب التفكير باسم منظمتنا الاحتمالات والأسماء كثيرة توقفنا عند الأسهل والأبسط صندوق "أطفال تشرنوبل" من الصعب توضيح وتصور شكوكنا، جدالاتنا، مخاوفنا، مثل هذه الصناديق أصبحت لا تعد، لكن منذ عشر سنوات كنا أول من بدأ"[٢]

ب- **النـوع الثـاني الشخصـية غيـر المدركـة لاسـتلابها بمفهومـه اللاوعـي** حيث الطبيعـة الأساسـية للبشـرية تكمـن فـي القـدرة إعـادة تشـكيل العـالم مـن حولنـا، وفقـاً لاحتياجاتنا، وقدراتنا الإبداعية، ولكن المستلبين بمفهومه اللاوعي محرومون من ذلك بسبب الطبيعة اللا إنسانية للرأسمالية. وأكد قول أحد المفكرين :إن تاريخ الاستلاب

[١]- سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص٤٤.

[٢] - السابق، ص.،٢١٥.

ليس إلا تاريخ الفكر المجرد المطلق.و معنى الفكر المجرد المطلق أي أن لغة المجتمع منفصلة عن الواقع، فهو يعيش في حدائق الخيال السرابية.

في صلاة تشرنوبل كان الجنود ورجال الإطفاء والعمال والزراع والمرضى وغيرهم من هذا النوع الثاني غير المدرك لاستلابه بمفهومه اللاوعي؛ حيث إن الاستلاب في هذه الشخصية يتم عبر تماهيها مع الواقع، وفرض السيطرة عليها دون شفقة أو رحمة تقول أليكسييفيتش عن استلاب السلطة للجنود: "أنا شخص عسكري، يأمروننني فأنفذ .. لقد أقسمت، لكن ذلك ليس كل شيء اندفاع بطولي تملكنا أيضا، لقد ربوه فينا، وقد حفزنا رجال السياسة بما ألقوه من خطب والراديو، والتليفزيون عشنا بشعور أنهم ينجزون عملا بطوليا ويشاركون في صنع التاريخ...لقد دفعوا لنا مرتبات جديدة راتبي العادي–أربعمئة روبل– أما هناك فكنت أقبض ألف روبل (الروبلات السوفيتية آنذاك) حسب ذلك الزمن هذا مبلغ كبير ،أنبونا فيما بعد قائلين لقد استخرجتم النقود بالمجرفة وعدتم–أعطُهم سيارات وبموبيليا بدون طابور ،إنه طبعا لأمر مخزٍ، فقد كان الأمر بالفعل اندفاعة بطولية"[1].

– من ملامح السيرة الذاتية المتمثلة في الشهادات والمونولوجات الداخلية في صلاة تشرنوبل الناتجة عن استلاب الذات سبعة ملامح ناقشها البحث هي:

(الخوف –الخداع، الخيبة والعجز، الانكفاء على الذات، القمع وانعدام الشفافية، القهر وألم المعاناة، الفقد والحرمان).

١– الخوف:

إن أصعب ما قد يواجهه الإنسان المستلب في حياته، هو الحقيقة التي يصعب مواجهتها، والخوف من نزع الغطاء عنها حيث يظهر بوضوح الخوف من الموت قبل النطق بشهادتهم للأجيال القادمة تشير في كتابها إلى الضحايا الذين سجّلت شهاداتهم في مواجهة سلطة النسيان، طلبوا منها بإلحاح أن تكتب، مكرّرين جملة لا تتغير: "لم نفهم كل ما شاهدناه، لكن فلتبق شهادتنا تلك. قد يقرؤها أحد ويفهمها في ما بعد، من يأتون بعدنا"، مبينة أنها لم تكن تعجّلهم على الكتابة بلا

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص.،١١٧.

سبب، لأن كثيرين منهم لم يعودوا في عِداد الأحياء، لكنهم تمكّنوا على الأقل من إرسال إشارة ربما تساعد الأجيال الجديدة على الفهم.تقول: "التقيت كل من شكل تشرنوبل بالنسبة له المحتوى الأساس لعالمه من سمم تشرنوبل ما في داخله ومحيطه، تحدثوا جميعهم لم أكن أعرف أن ثمن شهادتهم هي الحياة،اكتبي كرروا القول لم نفهم كل شيء شاهدناه لكن فلتبق شهاداتنا تلك قد يقرأها أحد ما، ويفهمها فيما بعد من بعدنا[١]

ويظهر الخوف عندما تصف المؤلفة الخوف والهلع الذي أصاب الناس من خلال شهادة زوجة رجل الإطفاء" منحوني شقة في مدينة كييف في مبني كبير عددنا كبير هنا ،شارع بأكمله يسمونه– شارع تشرنوبل – هؤلاء الناس عملوا طوال حياتهم في المحطة، الكثير منهم ما زال يذهب إلى هناك للمناوبة،تتم خدمة المحطة الآن بنظام الورديات. لا يعيش أحد هناك، ولن يعيش فيها أحدا أبدا، لدى الجميع أمراض صعبة، إعاقات، ولكنهم لا يتركون أعمالهم، يخافون حتى التفكير في بذلك، لا توجد لديهم حياة بدون المفاعل، المفاعل – هو حياتهم. أين ومن اليوم يحتاجهم في مكان آخر؟ غالبا ما يموتون، يموتون فجأة، يموتون في الطريق – مشى وسقط، غفا ولم يصح، حمل الورد للممرضة وتوقف قلبه،وقف على موقف الباص ... إنهم يموتون لكن أحدا لم يسألهم بشكل جدي كيف كانت معاناتهم ... ماذا شاهدوا ... لا يحب الناس أن يسمعوا عن الموت عن المخيف."[٢]

٢- الخداع :

خداع الدولة حيث المساواة المعلنة للحقوق هي القناع الخادع للامساواة، لهذا صارت الحرية أسطورة كاذبة حيث تسود العبودية الكاملة. لأن "الخدع أو الحيل السياسية قناع زائف للتستر على أبشع الجرائم والانتهاكات في حق الإنسانية، فكل ما يبدو منمنما ومزركشا يقضي على حرية الإنسان"[٣]

---

[١] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص.٤٥.

[٢] – السابق، ص.٤٠.

[٣] – هربرت ماركيوز، العقل والثورة (هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية)، ت، :فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط، ١٩٧٠ م، ص٢٠.

ومن هذه الشهادات نقرأ شهادة زوجة رجل إطفاء فقد حياته في التفجير، تقول إنها لا تدري عما تتحدث، عن الموت أم عن الحب. تحكي قصة حبها لزوجها وقرارها ملازمته في المستشفى في أيامه الأخيرة رغم تحذيرات الأطباء لها، وكيف أن كل مصاب بالإشعاعات يتحول إلى قنبلة بشرية متنقلة يعدي من حوله ويؤثر عليهم بطريقة مدمرة بدوره، وتأثير الحادث عليها، وتشتتها بين عالم الحلم والواقع وفقدانها ابنتها بعد ولادتها ثم بقائها رهن صورة زوجها الراحل وذكراه الباقية. "تقول: لكنني حدثتكم عن الحب ... وكيف أحببت"[1] .

٣- الخيبة والعجز.

إن الاستلاب صنيعة الخيبة والعجز، وهو رديف الإحساس بالضياع واللاجدوى الذي يحكم قبضته من نفس الإنسان، فيحيله إلى حال التسليم المرضي، والرضا بالعيش في هامش الحياة وبهذا يمكن القول إن حال نفسية تفضي بأنماطها المختلفة إلى تشكيل سلوكيات بشرية متنوعة؛ تبعا للحال الفكرية والاجتماعية والدينية التي ينتمي إليها الفرد.

٤- الانكفاء على الذات.

وعن بلادها "بيلاروسيا نحن بالنسبة للعالم أرض مجهولة غير معروفة روسيا البيضاء ... أما تشرنوبل فيعرفها الجميع لكن في ارتباطها بأوكرانيا وروسيا فحسب وما زال ينبغي أن نتحدث عن أنفسنا".[2].

شهادة لأم ولدت ابنتها ككيس لحم[3]. مصمت إلا من عينين، لا فتحة شرج، لا رحم لديها، وتعيش بكلية واحدة، كرهت الأم الجنس بعد ولادة الطفلة، تخيلت أن فعل الحب الملوث بالإشعاع الذري، لن ينتج عنه إلا ضحايا مشوهين، فتركت حياتها كلية وعاشت في المستشفى جوار طفلتها، ربما لتكفر عن ذنب الحب الذي اقترفته، ولكن الرعب استبد بها، كيف ستجيب ابنتها إن سألتها في المستقبل لماذا آتت بها

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص.٤٠.

[2] – السابق، ص.٧.

[3] – السابق، ص١٣٩.

إلى الحياة على تلك الصورة، فقضت ٤ سنوات تناضل مع السلطات للحصول على ورقة رسمية تثبت أن ما جرى للطفلة ليس إلا نتيجة للإشعاع، فقط لتكون حجة لديها للإجابة عن سؤال ابنتها إذ واجهته، لكنها فشلت في النهاية"أردت الحصول على وثائق كي تكبر وتعرف لسنا أنا ووالدها المذنبين،وليس حبنا" [1].

٥- القمع وانعدام الشفافية:

وتُعرفنا "أليكسيفيتش" من خلال شهادات الضحايا التي سجّلتها، أن القمع وانعدام الشفافية، واحدٌ في جميع الأنظمة الديكتاتورية، وأن الإحساس الأهم الذي طغى على المواطنين هو أنهم من دون حماية، وأن شخصين أو ثلاثة يقرّرون مصير ملايين البشر، الذين تحوّلوا لحظتها إلى إنسان واحد، بذاكرة واحدة، ومصير متساوٍ حتى في الشعور بالاغتراب عمّن حولهم، موسومين في كل مكان يُنظر إليهم بارتياب وخوف، ويعاملهم الناس بقلقٍ وعدم ترحاب، حتى أن ذويهم كانوا ينظرون إليهم كنظائر مشعة، لا أكثر ولا أقل، وكثيرًا ما أُغلقت أبواب في وجوههم. ربما كان القمع دافعًا لدى كثير من الضحايا للتحدّث إلى "أليكسيفيتش"، التي ترى أن تبدد الوعي وتشتته هو ما يُنقذ الإنسان في الحروب، وأنه يجري – في دول ما كان يعرف بالاتحاد السوفييتي– تحويل ذلك الإنسان، بصورة إجرامية، إلى (برغي في ماكينة السياسية). متسائلة عن إخفاء السلطة السوفياتيّة لكثير من المعلومات، ودأبها على التضليل، ودفع الناس إلى نوع من الانتحار الجماعي. وتقول: "بحثوا عن الجواسيس والمخربين انتشرت إشاعات بأن الحادثة عمل مخطط له من قبل الاستخبارات الغربية ،بهدف تقويض المعسكر الاشتراكي يجب توخي الحذر، لقد انهارت عندي صورة الحرب هذه وثقافة الحرب هذه أمام عيني،دخلنا عالما غير شفاف،حيث الشر لا يقدم أي توضيح ،ولا يكشف عن نفسه ،ولا يعرف القوانين ،شاهدت كيف يتحول إنسان ما قبل تشرنوبل إلى إنسان تشرنوبل ،لقد سمعتأكثر من مرة وهنا يوجد ما يجب أن نفكر به، رأيا مفاده إن سلوك رجال الإطفاء الذين أخمدوا الحريق في الليلة الأولى في المحطة النووية، والعاملين على إزالة آثار الكارثة يذكر بالانتحار،

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص١٤١.

الانتحار الجماعي، لقد عملوا غالبا دون ثياب واقية ،وتوجهوا إلى العمل حيث ماتوا ،دون تردد، لقد أخفوا عنهم حقيقة تلقيهم جرعات عالية ، وتعايشوا مع هذا الأمر، ومن ثم فرحوا، عندما تسلموا شهادات التقدير، والميداليات، التي قلدوهم إياها قبل الموت، وكثير منهم لم يسعفة التكريم وهكذا من يكون هؤلاء؟ أبطال أم انتحاريون.ضحايا الأفكار السوفيتية وتربيتها؟ لماذا ينسى مع مرور الزمن أن هؤلاء أنقذوا بلدهم ،وأنقذوا أوربا؟ تصوروا لثانية المشهد لو انفجرت المفاعلات الثلاثة الأخرى إنهم أبطال التاريخ الجديد لقد أنقذوا الحياة نفسها زمن الحياة الزمن الحي ما فعله الإنسان في تشرنوبل جعل له فضلا على الجميع"[1].

والقمع وانعدام الشفافية أيضا في شاهدة أخرى من ضحايا الكارثة: "عن ماذا تريدينا أن نتحدث؟. عن الحب أم الموت؟. لأن كليهما صارا واحدًا!. تم طرد الحيوانات وقتلها، تم حشر الناس وإخلاؤهم، تركت البيوت والأسواق والمطاحن كما هي، على حالها، بأثاثها وعدتها، كان ممنوعًا أخذ أي ذكرى كانت، ومن ثم، هاجم العدو كل شيء، أفرغ كل شيء من معناه، وفي النهاية لم يعد للنساء رجالهن، ولا أحبابهن، كما سرق من الرجال طريق الرجوع، آخذًا حيواتهم ببطء، لم يقاوم أحد، بل إن السلطات طالبت المنكوبين بالصمت، حيال هذا العدو، وفصلت المصابين عن لحظاتهم الأخيرة مع من يحبون، عزلتهم في المشافي، لا لتنقذهم، فقد صار الفكاك مستحيلًا، بل لتتفرج إلى العدو ينهشهم، العدو الذي لم يره أحد، لم يستطع أحد الانتقام منه، أو حتى مواجهته في أي مكان. كان من المؤلم أن يستمر وجود هذا العدو ومآسيه في الذاكرة حتى اليوم، مرافقًا للصور الأخيرة المشتركة مع الضحايا وأولئك الذين ما زالوا يتذكرون. من المؤسف أنهم استغرقوا بضعة أيام حتى يخبروا النساء بأن هذا العدو ليس سوى مادة مشعة سامة وشديدة العدوى، لا يمكن رؤيتها، ولا الإحساس بها، ومن المستحيل إيجاد شكل لها، لكنها تمكنت من احتلال البيوت وطرد الناس، تمكنت من قتل الرجال، وتفريق العائلات.

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش،صلاة تشرنوبل،ص.٤٧-٤٨

٦- القهر وألم المعاناة:

كتاب صلاة تشرنوبل تميز أنه اعتمد على الإنسان الضحية بوصفه الراوي الحقيقي والوحيد للحدث، إذ لا نقرأ هنا مادة إخبارية منتجة ضمن آليات إعلامية خاضعة لسياسات التحرير، وإنما يطالعنا صوت الضحية؛ نبضاتها وانفعالاتها وخساراتها الشخصية.

تروي البيلاروسيّة سفيتلانا أليكسيفيتش شهادات لأكثر من (١٠٧)شخص ممّن شهدوا حادثة انفجار مفاعل نووي في منطقة "تشرنوبل" شمالى العاصمة الأوكرانية "كييف"، إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، حينها، في السادس والعشرين من أبريل (نيسان) عام ستة وثمانين وتسعمائة وألف، على الساعة الواحدة وثلاث وعشرين دقيقة وثمان وخمسين ثانية، حين كان ما يقرب من مئتي موظّف يعملون في ذلك المفاعل النووي، بدأت سلسلة انفجارات في إحدى محطّات الطاقة في المفاعل، متسبّبةً بواحدة من أكبر الكوارث الصناعية في القرن العشرين، والتي شملت آثارها الكارثية أكثر من مليوني مواطن، وأنتجت لاحقًا مزيدًا من المصابين بالأمراض السرطانية والتخلف العقلي والاضطرابات النفسية والعصبية والتغيرات الجينية المفاجئة. كما سجّلت مستويات مرتفعة من الإشعاع في البلاد المحيطة، ومنها: ألمانيا، وسويسرا والنمسا وبولندا." ٢٦ نيسان"إبريل" ١٩٨٦ سلسلة انفجارات هدمت مبنى ومفاعل الطاقة الرابعة في محطة تشرنوبل الكهرذرية الواقعة قرب البيلاروسية كارثة تشرنوبل أضخم كارثة تكنولوجية في القرن العشرين"[١]. كما "تعد الكارثة بالنسبة لبيلاروسيا الصغيرة فاجعة وطنية مع أن البيلاروسيين لا يمتلكون محطة كهروذرية واحدة إنها كما كانت في السابق بلد زراعيذو أغلبية سكانية تعمل في الزراعة، لقد قضى الفاشيون الألمان في الحرب الوطنية العظمى على ٦١٩ قرية في الأراضي البيلاروسية بمن فيها من السكان وبعد كارثة تشرنوبل فقد البلد ٤٨٥ قرية و٧٠ منها دفنت في الأرض إلى الأبد".[٢]. "الكثير من الأرقام مجهولة حتى الآن

[١] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص.٧.

[٢] – السابق، ص.٨.

مازالوا يحتفظون بها سرا لأنها مرعبة، لقد أرسل الاتحاد السوفيتي إلى مكان الكارثة ٨٠٠ ألف جندي ممن يؤدون الخدمة الإلزامية والمستدعون للخدمة بهدف القضاء على آثار الكارثة".[١].

ونرى قمة المعاناة في كارثتان أحلت بهم"كارثتان توافقا،اجتماعية –انهار الاتحاد السوفيتي أمام أعيننا،وغرقت تحت الماء القارة الاشتراكية العملاقة وفضائية– تشرنوبل انفجاران كونيان. الانفجار الأول –الأقرب والأكثر فهما من قبلنا. الناس نهارا ومعيشة مشغولين: بماذا نشتري ،إلى أين نسافر،؟بماذا نؤمن؟تحت أي راية نقف من جديد، أو أن علينا نتعلم كيف نعيش لأنفسنا ولحياتنا؟ الانفجار الثاني غير معروف لنا، لا نتمكن من التعامل معه، لأننا ما عشنا من قبل أبدا بتلك الصورة ،هذا ما يعانيه الجميع وكل فرد ،نتمنى أن ننسى كل ما يتعلق بتشرنوبل،لأن الوعي استسلم أمامه إنه كارثة الوعي انفجر عالم قيمنا وتصوراتنا لو انتصرنا على تشرنوبل أو فهمناه للنهاية لكننا فكرنا وكتبنا عنه أكثر وهكذا نعيش نحن في عالم،ووعينا في عالم آخر ،ينزلق الواقع، لا يستوعبه الإنسان".[٢].

وتتأجج المعاناة في محاكمة هزلية "تعين على اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيتي محاكمة المذنبين في الكارثة بأن المسألة يجب أن ينظر فيها في مكان وقوع الجريمة في تشرنوبل نفسها"[٣]. وكأنها تتنبئ بمأساة أوكرانيا مع الحرب الروسية ٢٠٢٢ م"تبدأ أوكرانيا في المستقبل القريب عملية بناء ضخمة سيظهر فوق التابوت الذي غطى ١٩٨٦ في محطة تشرنوبل الكهرذرية..." [٤].

تقول أحد الشاهدات:"لقد كنت يوم سعيدة، أنجبت أطفالي بالحب ... لقد ولدتهم، لا أريد الحديث أكثر سأبكي ... يلتقيني الناس ... يستغربون ... لا يفهمون

[١] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص.١١.

[٢] – السابق، ص٥١.

[٣] – السابق، ص.١١.

[٤] – السابق، ص.١٢.

... ماذا تفعلين بأطفالك إنك تقتليهم، أنا لا أقتلهم أنا أنفذهم ... هذا الرعب الموجود هنا أنا لا أعرفه، لا أراه، وليس له وجود في ذاكرتي".[1].

٧- **الفقد والحرمان.**

يعتبر صلاة تشرنوبل الكتاب الأول الذي نقل أسوأ حادث نووي في التاريخ، حادث بمفاعل تشرنوبل الذي راح ضحيته أكثر من ٢٠٠٠ شخص مابين الوفيات والإصابة، في هذا العمل قامت الكاتبة بنقل أصوات الضحايا من خلال إجراء الكثير من المقابلات مع رجال الإطفاء وزوجاتهم، ومن قاموا بدفن وجه الأرض الملوث بالإشعاع وقتل الحيوانات في تلك المنطقة. "كل شيء اختفى، وتلك الحياة اختفت. بأي شيء نتمسك؟ وبماذا ننجو؟ يجي ألا نعاني هكذا دون معنى (تصمت).أعرف أمرا واحدا، لن أكون سعيدة أبد"ا.

وتذهب "أليكسيفيتش"، إلى أن هذه الكارثة النوويّة، ليست أزمة الإنسان الروسي أو الأوروبي وحده، وإنما هي أزمة العالم كله، لذا فهي تصفه بـ"دفتر المستقبل"، وإن كان التوصيف الأصلح لذلك الكتاب أن يكون "دفتر الديمومة"، فهذا السجل الشفاهي المرعب، لا يحكي فقط عن مأساة تلك الحقبة، وإنما يبدو كسجل شفاهي عام عن الإنسانية. وهو ما يؤكده مترجم الكتاب أحمد صلاح الدين، الذي يرى أن "المطلع على الكتاب يستمتع بقراءته، لحكايات داخل الزمن وخارجه، حيث يرى الإنسان نفسه في كل حكاية منها، تنتقل به بين حالات شديدة التباين، فمن دمعة حزن، إلى ابتسامة أمل، أو ضحكة تملأ الفضاء اليائس، لحظات تأمل عميق، فراق، حب، خيانة". مضيفًا: أن "الكتاب عبارة عن حكايات الإنسان الصغير في عالم واسع يقرر فيه بعض الأشخاص مصير البشرية، وفي النهاية يدفع هو الثمن وحده وينجو الفاعل الحقيقي، إنها حكايات الوحوش التي يخترعها الإنسان نفسه،

وبأسى شديد تقول "أليكسيفيتش": "إن لأبطال تشرنوبل نصبًا تذكاريًا واحدًا، هو التابوت المصنوع يدويًا، الذي دفنوا فيه النار النوويّة، إنه أهرام القرن العشرين". مؤكدة أن "مواطني روسيا البيضاء اليوم صناديق سود حية، تسجل المعلومات

[1] –سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص١٠٧.

للمستقبل، وللجميع". وأن "الفترة ما بين حصول الكارثة وبداية التحدث عنها كانت فترة توقف مؤقت، لحظة بكمٍ علقت في ذاكرة الجميع".

ورغم أن قضية الكتاب الأولى هي ما بات يعرف بـ"إنسان تشرنوبل"، إلا أن الكاتبة تصور "انتقال حال البلدان الستالينية من الصلاة لماركس إلى الصلاة للدولار".

تناولت بعمق ما حدث في مأساة جماعية كبيرة، شملت الإنسان والمكان والزمان، ليحضر في خلفية أصوات الضحايا التغير السياسي الذي شهدته تلك البلدان، كاشفة كيف سرعت الكارثة النوويّة في تفكك "الامبراطورية الستالينية"، ربما ليصح تشبيه المؤلفة "التشرنوبليين" بأنّهم: "حتى بعد موتهم يضيئون"، ليكون تشبيهها تشبيهًا وظيفيًا يكاد يكون سمة لأدبها، وهي تحاول أن تقول لنا: إن "مأساة الإنسان من اختراع الذاكرة".

قضية تشرنوبل قضية العالم أجمع، سمعت وقت أن كانت الكارثة لا زالت فى أيامها الأولى أن الناس يقولون، فى كل أنحاء العالم: إن هذا لا يمكن أن يحدث إلا عندكم أيها الروس المستهترون، فى حين ما كان ليخطر على بال أحد أن يطلق مثل هذا الوصف على اليابانيين عندما وقعت كارثة مفاعل فوكوشيما اليابانى ،يقف الإنسان عاجزا أمام التكنولوجيا، التى اخترعها بنفسه، وفى مقدمتها تكنولوجيا الطاقة الذرية إن إصرارنا على المضى قدما فى هذا الطريق، لا يعنى سوى أننا مصرون على الانتحار، ولا يجب أن يقتصر التفكير فى هذا الأمر على الدول الأوروبية وحدها، إنما يجب أن ينشغل به العالم أجمع، فى أمريكا اللاتينية، جنوب أفريقيا، لا يزالون يؤمنون بالطاقة الذرية، كما فعلنا نحن منذ ثلاثين، أربعين سنة ماضية، لكننا فهمنا أنه لا يمكن الفصل بين الذرة العسكرية والذرة السلمية، لا فرق بينهما، كلها شىء واحد.

ملامح السيرة الذاتية في التقنيات الفنية المتمثلة في أدب الشهادات الشخصية في صلاة تشرنوبل.

الطريقة الفنية التي اتبعتها الكاتبة في بناء الشهادات الشخصية نجدها تشبه تقنيات السرد الروائي وأشكال التجريب فيه فقد نسجتها بمهارة عبر كتابها حيث ترسم الشخصيات بأبعادها النفسية، وعوالمها الداخلية عبر التقنيات الفنية الحديثة من خلال استخدام تقنية تيار الوعي وتداعي المعاني والحُلم، والاستبطان الداخلي للنفس، والتلاعب الفني بين تداخل الزمان والمكان والحدث في رسم المشهد، والتوثيق، المصداقية، المونولوج، تعدد الأصوات. أبان البحث عن سبعة كالآتي: (التوثيق. المصداقية، المونولوج، الاستبطان الداخلي للشخصيات، تعدد الأصوات، الحُلم، التلاعب الفني بين تداخل الزمان والمكان والحدث في رسم المشهد).

١-تقنية التوثيق:

تأتي البداية التوثيقية في توثيق تاريخ انفجار محطة تشرنوبل بكل دقة لأنه سيكون سجلا شاهدا على حدث عالمي- في السادس والعشرين من إبريل/ نيسان عام ١٩٨٦، الساعة الواحدة، وثلاث وعشرون دقيقة،حينما دمرت سلسلة من الانفجارات المفاعل بالمبنى الذي يحوي وحدة الطاقة رقم ٤ لمحطة تشرنوبل الذرية، أصبحت كارثة تشرنوبل أكبر حادث تكنولوجي في القرن العشرين، وبالنسبة لبيلاروسيا، اعتبر الحادث كارثة قومية، أدت لضياع أربعمائة وخمس وثمانين قرية ومستوطنة، بين هؤلاء ٧٠% دفنوا تحت الأرض إلى الأبد. واحد من بين كل خمسة بيلاروسيين يعيش على أرض ملوثة، يقدر عددهم بمليونين، ويأتي الإشعاع في مقدمة العوامل الديموجرافية المسئولة عن نقص السكان في بيلاروسيا. ونتيجة لانبعاث جرعات صغيرة من الإشعاع على نحو مستمر، تزايد عدد المصابين بالسرطان والتخلف العقلي والاضطرابات العصبية والتشوهات الجينية كل عام.

صلاة تشرنوبل تمتلك كل معالم الرواية الوثائقية، رغم أنها لا تُصنف فنيا على أنها روايات، فيها الأبطال، وعناصر الصراع، وملامح البداية والعقدة والنهاية، وفيها الحوار والسرد واستخدام المجاز، ولكنها تحتفظ بمادة الواقع كما هى، تريد أن

تجعلها شهادة ووثيقة، ولا يتدخل الكاتب إلا من أجل الترتيب والتنسيق وضبط البناء، تصبح الأولوية للواقع وليست للخيال. وقالت" أحاول الارتقاء لأكون روحًا، وأكتب عن الحياة اليومية للناس العاديين. أكتب وأجمع الأحاسيس اليومية والأفكار والكلمات،اسم دولتي الصغير الضائع في أروبا تلك التي لم يعرف عنها العالم تقريبا أي شيء من قبل، رنَّ في جميع اللغات وتحولت إلى مختبر تشرنوبل الشيطاني،أما نحن البيلاروسيين فأصبحنا شعب تشرنوبل"[1].

الكتاب يعج بالمشاهد المؤلمة كما صورها وحكاها عشرات ممكن التقتهم المؤلفة، أسر نازحة وأخرى رفضت التخلي عن أرضها، موظفون سابقون عملوا بالمفاعل، وعمال متطوعون، إطفائيون، زوجات ورجال سردوا معاناتهم، أمهات فقدن أجنتهن، وأخريات جاء أطفالهن بإعاقات دائمة وتشوهات جسيمة.

اعتقد داستيفسكي أن الإنسانية تعرف الكثير، تعرف أكثر بكثير مما عرف الأدب.إذن ماذا أفعل؟ أجمع مشاعراً, أفكاراً, وكلمات الحياة العادية. أجمع حياة زمني. أهتم بتاريخ الروح. الحياة اليومية للروح، الأشياء التي تمحوها الصورة الكلية للتاريخ, أو تحتقرها. أعمل علي التاريخ الغائب تقول :"كنت أبحث عن جنسٍ أدبى يسمح لى بمقاربة رؤيتى للحياة بأفضل ما يمكن. فاخترت أن أكتب أصوات الناس واعترافاتهم". وتضيف: "لا أهتم بتسجيل التاريخ الجاف وسرد الأحداث والوقائع، أنا أكتب تاريخ من المشاعر الإنسانية، ما ظن الناس وما فهموا وتذكروا خلال هذا الحدث". لتؤكد أن "ما أكتبه ليس أدبًا، إنه وثيقة. ما هو الأدب اليوم؟ من بإمكانه أن يجيب على هذا السؤال؟ نعيش أسرع من أي وقت مضى. يمزق المحتوى الشكل، يكسره ويغيره. كل شيء يفيض متعديًا شواطئه، الموسيقى، الرسم – حتى الكلمات في الوثائق تهرب من حدود الوثيقة. لا حدود بين الحقيقة والتلفيق، أحدهما يتدفق نحو الآخر"."[2].

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص٤٢.

[2] – السابق، ص٤٢.

وعلى كثرة الشهادات التي احتوى عليها الكتاب (١٠٧ شهادات من أصل خمسمائة سجّلتها المؤلفة)، إلا أنه نادرًا ما تتشابه تفاصيل شهادة مع أخرى، وكأن كل شهادة بمثابة قصة قصيرة مدهشة، مأساوية، اعتمدت المؤلفة في صياغتها على التداعي الشفاهي للسارد صلاة تشرنوبل تاريخ شفاهي التاريخ المغفل[١]. أي عبر لغة تبرز: صوته، لعثمته، خوفه، توتراته، ثقته، وكأنك تسمع الشهادة من فم قائلها لا تقرأها. حيث إن تلك الشهادات بمثابة الحكايات وثائق للمستقبل. لافتة إلى أن الحديث عن تشرنوبل استدارةٌ إلى أحزان الآخرين وحياتهم، وإفساح المجال لهم ليرفعوا أصواتهم بالاحتجاج، وتسجيل شهاداتهم للتاريخ وللمستقبل.

٢- المصداقية:

احتفظت مؤلفة صلاة تشيرنوبل بمادة الحياة فى صورة شهادات واقعية صادمة، ولكنها كتبتها وبنتها بطريقة أدبية مؤثرة، ومنحتها المغزى الإنسانى العميق، هذا هو الإنسان الذى لا يتوقف عن طرح الأسئلة، والتغنى بالحياة، حتى إذا سحقته الكوارث. كتاب"أصوات من تشرنوبل: التاريخ المحكى لكارثة نوويّة عام ١٩٩٧، ويعدّ أشهر كتب "أليكسيفيتش حيث تقول: "ما قبل تشرنوبل كنا سعداء"[٢].

٣-المونولوج:

المونولوج أو الحوار الداخلي ينبش عما يدور في ذهن الشخصية ، فنجده يشارك القارئ في الأحداث، ويجعله يتوقع الأحداث القادمة،كما يساعد على عنصر التشويق و يعكس عدم استقرار نفسي يساعد على تسلسل الأحداث، ويلعب دوره في التوغل والعمق لأدق المشاعر والأحاسيس حتى المدينة الفاضلة بدت كأنها هي الأخرى وحش من هذه الوحوش". مونولوج داخلي يثير في النفس معان كثيرة.

ونقرأ من قصص الشهود، الضحايا، قصة عائلة طاجكستانية، فضلت النزوح للعيش في أرض المفاعل المهجورة والملوثة كلية بالإشعاع، عن المكوث في بلدهم المشتعل بالحرب الطائفية، تحكي إمرأة في مونولوج طويل تعبر فيه عن مشاعر

---

[١] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص٤١.

[٢] – السابق، ص٣٢.

الخنق والضيق والاضهاد وهروبها من نيران الطائفية إلى روسيا وقد فضلت أن تعيش في أرض المفاعل النووي والغريب أن يؤرقها ليست الإشعاعات وإنما خوفها من البشر الذين يقتلون بعضهم بدم بارد حيث كانت تعمل ممرضة، أنها بينما تساعد إحدى النساء على ولادة طفلتها – في طاجكستان– دخل مسلحون عليهم حجرة الولادة، فسألوا المرأة التي خرج وليدها لتوه إلى الدنيا، إلى أي الجهتين تدين بالولاء؛ المعارضة أم الموالاة للنظام، فسكت الكل لم ينطق أحد، فأخذ المسلحون الطفل المولود وألقوا به من النافذة. فيما تقول ربّة العائلة ذاتها عن حياتها في طاجكستان: "كنت أخرج من البيت على الدوام بثياب نظيفة – مغسولة، بلوزة، جيبة، ملابس داخلية، ربما تموت فجأة! (...) اليوم أمشي في الغابة – أرض المفاعل النووي وحدي ولا أخشى أحدًا. (...) الأرض لا تخيف، وكذلك الماء.. إنما أخشى البشر.. بإمكانه أن يشتري مدفعًا رشاشًا من السوق بمائة دولار". وتؤكد "يراودنى الأمل أن يفهم الجميع هذا، فأنا أرى أن أكبر تهديد للإنسان هو الإنسان نفسه". [1].

٤– الاستبطان الداخلي للشخصيات:

تمهد المؤلفة لكتابها، الذي برعت فيه بالغوص في أعماق المشاعر البشرية، بتثبيت بعض الوثائق التاريخية عن الكارثة، لتأخذنا بعد ذلك في جوهر الحدث وجعلنا أكثر قربًا من الضحايا لحظة وقوع الكارثة وما بعدها، عبر مرويات من التقتهم من ضحايا، ممن سمّمت "تشرنوبل" حياتهم وذكرياتهم، وليس أرضهم وسماءهم فحسب، لتسجل ما تسميه بـ"التاريخ المغْفل"، أي نفي التاريخ المعلن، أو التصريح بتاريخ موازٍ، تاريخ المعاناة لبشر عاديين جمعت شهاداتهم على مدار سنوات: نساء فقدن أزواجهن، وآباء فقدوا أبناءهم، وسيّدات فقدن أجنّتهن، أمّهات لم ينجُ أبناؤهن من التشوّهات الجسدية والنفسية، شباب وعجائز ونازحون، وفلاحون رفضوا مغادرة أراضيهم، وذوي إعاقات، وموظّفون سابقون في المُفاعل. تقول "أليكسيفيتش": "المصير هو حياة إنسان واحد. أمّا التاريخ، فهو حياتنا جميعًا، وأنا أريد أن أروي التاريخ بشكل لا يضيع فيه عن بصري، مصير إنسان واحد".

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص٩٨.

تسند المؤلفة تفاصيل الحكاية إلى الشخصيات التي تقارب المأساة من وجهة نظرها، ومن موقعها السابق ورؤيتها الراهنة لها، وكيف أثرت في حياتها، وأصبح ما بعد الانفجار يختلف عما قبله اختلافًا جذريًا، ليصبح هناك "إنسان ما قبل تشرنوبل" و"إنسان ما بعد تشرنوبل".

تحاول الكاتبة أن تترجم الأفكار التي شغلت الجميع آنذاك؟ ومراجعاتهم لما عاشوه. من مآسٍ تحاول أن تقتحم عالمهم الداخلي بمساعدة أصحاب الشهادات التي منها ما ترويها زوجات عن حالات أزواجهن خاصة الذين شاركوا في إطفاء الحرائق وتنظيف المفاعل في أيام الحادث الأولى فكانوا عرضة لجرعات مجنونة من الإشعاع، صور عن انتفاخ وتورم رجالهن، البحث عن زجاجات اللبن، مشاهد الإخلاء، وامتلاء الميادين بالمركبات العسكرية. كما نجد مدن وبيوت غُلفت بالسلوفان، ثم دفنت هي وذكرياتها في باطن الأرض. وعائلات حرموا من الاقتراب من أحبائهم، وحتى من مات منهم، لم يسمح لذويهم باستلام جثثهم، ودفنوا في مقبرة بموسكو في توابيت من الزنك محكمة الإغلاق.

٥- تعدد الأصوات:

-تعشق سفيتلانا أصوات البشر، وتهتم بتاريخ الروح، وهذا ما حققته على الورق، تركتنا مع أبطالها، وكتبت عناوين تأملية لأصوات منفردة وجماعية: جعلتنا نعيش أربعة عشر يوما مع امرأة روسية، لم تترك أبدا زوجها رجل الإطفاء، الذى صارع الموت فى المستشفى بجسارة.

توقفتْ عند قصص الصيادين الذين كلفوا بقتل الحيوانات فى محيط المفاعل المنفجر، سجلت شهادات الذين رفضوا إخلاء منازلهم، فعاشوا مع ما تبقى من القطط والكلاب، حفرت شهادات عن الأكاذيب الرسمية، التى أخفت أخبار الكارثة عن الشعب، ثم حولتها إلى مؤامرة من الإمبريالية الغربية، وانتهت بها إلى «ملحمة بطولية»، انتصر فيها الإنسان على الإشعاع.

في صلاة تشرنوبل قسمت الكاتبة مؤلفها إلى ثلاثة فصول، أرض الموتى، وإكليل الأحياء، واستعذاب الحزن، دشنته وختمته بما عنونته بصوت إنساني يتيم،

داخل كل فصل تتعدد الأصوات، لتؤدي بما يشبه المعزوفة الموسيقية الحزينة، يؤديها: كورس الجنود وكورس الشعب، وكورس الأطفال.

تعدد الأصوات يجعل النص يقدم ميسمه الإبداعي وأطروحته المرجعية عبر أصوات متعددة؛ وهذا ما يجعل القارىء الضمني الواعي يختار بكل حرية الموقف المناسب، ويرتضي المنظور الإيديولوجي الذي يلائمه ويوافقه ، دون أن يكون المتلقي في ذلك مستلبا أو مخدوعا من قبل السارد أو الكاتب أو الشخصية على حد سواء بين المعارضة والسلطة تتعدد الأصوات في النص حيث شهادة المعارضين للسلطة الشيوعية تقول الكاتبة على لسان أحد الشهود: "وصلنا مجموعة لم يرسلنا أحد مجموعة نواب بيلاروسيين من المعارضة .يا لهذا الزمن! السلطة الشيوعية تتراجع...أصبحت ضعيفة غير واثقة، كل شيء كان يهتز، لكن القيادة المحلية استقبلتنا بشكل غير ودي،هل لديكم إذن بالدخول؟ هل تملكون الحق بإثارة الناس؟ وطرح الأسئلة؟ من كلفكم بهذه المهمة؟ استندوا إلى تعليمات الجهات العليا:لا داعي للذعر انتظروا التعليمات، كأنهم يقولون لنا أنتم الآن ستحرضون ،وتخيفون الناس، ونحن نريد تنفيذ الخُطة، في الحبوب واللحم، لا تخافون على صحة الناس،بل على الخطط الجمهورية ،والاتحادية ... تخافون القيادة العليا،وهي تخاف من هو أعلى منها، وهكذا بالتسلسل وصولا إلى الأمين العام، شخص واحد يقرر... في تلك اللحظة القيصر الشيوعي وضحنا لهم: كل شيء ملوث هنا،كل ما تنتجوه، لا يجوز استخدامه في الطعام ... أنتم- محرضون، أوقفوا هذه الدعاية المعادية .... سنصل، وسنخبر الجهات العليا بالأمر... واتصلوا وقدموا تقريرهم للجهات اللازمة...[1].

نلتقي شهادة الجنود مع الضباط وهم وتتعالى الأصوات تجسم حجم مآساتهم من حالة الاستفار العسكري الذي ملأ قلوبهم بالخوف يقول: اجتمعنا صباح اليوم التالي قرب مبنى اللجنة العسكرية، أخذوا منا وثائقنا، والبطاقات العسكرية، وأجلسونا في حافلات، وساروا بنا في اتجاه مجهول، لم يعد أحد يحلم بالتدريبات العسكرية، كان الضباط المرافقون يجيبون عن الأسئلة كلها بالصمت تنبأ أحدهم

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص٢٠٧.

قائلا: أيها الأخوة! وإذا كنا متجهين إلى تشرنوبل؟! القيادة:يرجى الصمت! إثارة الخوف – محاكمة ميدانية عسكرية حسب قوانين زمن الحرب، وكان هناك توضيح بعد مرور بعض الوقت، نحن في حالة استنفار عسكري، لا نريد مهرجين بيننا!من يترك وطنه في المحنة يعد خائنا" .[1].

كما أن تعدد الأصوات يعتمد على تعدد المواقف الفكرية، واختلاف الرؤى الإيدولوجية، وترتكز كذلك على كثرة الشخصيات كـ:" أزواجنا صامتون ،الرجال صامتون ، لن يقولوا لكم شيئا ،صرخوا بهم من الخلف،بأنهم كالنساء، يهربون جبناء! يبيعون وطنهم، أين يكمن ذنبهم؟، هل يعد ذنبا، أنك لا تجيد إطلاق الرصاص؟ ولا تريد..."[2].

كتاب "صلاة تشرنوبل، يُعد رواية ضخمة متعددة الأصوات لإنسان الكارثة، تمثل أدبًا خاصًا متمايزًا في تصنيفه عن الأشكال الأدبية المطروحة، أو كتابًا تاريخيًا يحكي بؤس الإنسانية، لكن شهاداته التي يضمها بين صفحاته، هي – بلا شك – إحدى المنجزات الفنية التي يضمها السجل الإبداعي للنصوص الأكثر رعبًا على المستويين الجمالي والإدراكي.

٦– **الحُلم:**

ربما يكون الحلم جزءًا من الواقع، فتكون أحلام اليقظة بمثابة طوق النجاة من عالم مسموم وبيئة مليئة بالإشعاعات وخاصة عندما يلجأ فيه الإنسان ليعيش الحياة التي يريد أن يعيشها على أرض الواقع ومنه تروي زوجة رجل الأطفاء فاسبا الذي راح ضحايا انفجار المفاعل في محطة تشرنوبل(تحلم وكأنها معه ويطلب منها أن يرى طفله مع أن ابنتها منه ماتت بسبب الإشعاعات النووية وأندريه من رجل آخر أنجبت منه ولم تتزوجه وفاء لزوجها رجل الإطفاء) تقول: "فاسبا في كل زواية في البيت ... صوره ... أتحدث إليه ليلا، وأتحدث، يحدث أحيانا، أن يسألني في الحُلم: أرني طفلنا، نتقدم أنا وأندريه نحوه، وهو بدوره يمسك بيد ابنتنا ويحضرها معه، هو دائما مع

[1] – سفيتلانا أليكسييفيتش،صلاة تشرنوبل،ص.١٣١

[2] – السابق، ص٩٨.

الابنة ويلعب معها فقط ... هكذا أعيش في الوقت نفسه في العالمين الواقعي وغير الواقعي لا أعرف أن الأفضل بالنسبة لي ..."[1].

٧- التلاعب الفني بين تداخل الزمان والمكان والحدث في رسم المشهد

ترسم لنا الكاتبة صورة مشهدية يتداخل فيها الزمان والمكان والحدث في تعميق الصورة القاتمة عندما حلت الكارثة "عندما وقعت الكارثة، لم يعرف الناس كيفية التصرف، وانتظروا التعليمات من الدولة، المسؤولين أخبروهم في البداية أنه مجرد عمل تخريبي من الدول المعادية لتقويض المعسكر الاشتراكي فصدّقوا، استقدموا الإطفائيين لإخماد حريق في محطة نووية دون أن يخبروهم بأن يتخذوا احتياطاتهم ... فذهبوا دون تردد. لاحقًا ... أخفوا عن الجميع حتى الجنود، نسب الإشعاعات التي يتعرضون لها. نزعوا الملصقات التعريفية من على عبوات الحليب التي توضح مكان الصنع، كي لا يتجنّبه الناس إن عرفوا أنه صُنع في أماكن مصابة بالإشعاعات! أقنعوا الناس في البداية ألا يغادروا المدن المتضرر بالإشعاع كي لا ينقلوا الذعر أو المرض خارجها، ثم بعد أن قرروا أن يقوموا بعمليات الإجلاء، لم يجدوا أيدًا عاملة، فجلبوا الكثير منهم مرة أخرى للقيام ببعض الأعمال الزراعية، علف ملوّث باعوه بسعر رخيص في الأماكن النظيفة!"[2].

هكذا كان حجم المآساة أبان البحث عن الكثير مما حاولت الكاتبة أن تنقله إلينا من خلال شهادة الشهود في كتابها صلاة تشرنوبل ليظل شاهدًا على عصره والعصور التي بعده.

-نستخلص الآتي:

١- كتاب صلاة تشرنوبل توافر فيه سمات النثر الوثائقي كما حددته الموسوعة السوفيتية ١٩٨٧ وكان سببا في حصول الكاتبة على جائزة نوبل للآداب ٢٠١٥ .

٢- أصبح ما يسمى عالم تشرنوبل، وإنسان تشرنوبل، وطفل تشرنوبل، وشارع تشرنوبل وكأنه تيمنا بكارثة محطة تشرنوبل.

---

[1] - سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ص٣٩.

[2] - السابق، ص٤٧.

٣- تناول البحث ملامح أدب السيرة الذاتية المرتبط بالشهادات الشخصية واليوميات والمونولوجات الموجودة في صلاة تشرنوبل وهو استلاب الذات واشتمل على نوعين الأول: استلاب بوعي، واستلاب بغير وعي لدى إنسان تشرنوبل والتي نتج عنها سبع سمات شخصية في أدب الشهادات واليوميات المرتبط بالسيرة الذاتية في هذه الوثائق هي: الخوف –الخداع،الخيبة والعجز،الانكفاء على الذات، القمع وانعدام الشفافية،القهر وألم المعاناة،الفقد والحرمان).

٤- أبان البحث عن بعض التقنيات الفنية للشهادات الشخصية وتمثلت في سبع تقنيات هي: (التوثيق.المصداقية،المونولوج،الاستبطان الداخلي للشخصيات،تعدد الأصوات،الحُلم، التلاعب الفني بين تداخل الزمان والمكان والحدث في رسم المشهد).

٥- صلاة تشرنوبل هو كتاب التاريخ المغفل لما حدث في مختبر تشرنوبل الشيطاني.

٦- كأن الكاتبة تنبئت بما يحدث الآن من حرب روسيا مع أوكرانيا ٢٠٢٢ مع أن وقت كارثة تشرنوبل هاجر الأسلاف من بيلاروسيا وغيرها إلى كييف عاصمة أوكرانيا والآن أحفادهم تحت القصف الروسي.

الخاتمة ونتائج البحث

في النموذجين السابقين رصدنا أهم ملامح أدب السيرة الذاتية كالآتي:

١-- اتخذ أدب المذكرات قديما وحديثا شهرة واسعة ولكن مع مرور الزمن اختلف حيث إنه لم يعد حكرًا على أصحاب النفوذ، والمناصب الرفيعة، وأبانت كثرة مؤلفاته عن ذلك.

٢-النموذج الأول مذكرات طبيب شاب للكاتب ميخائل بولغاكوف المرتبط بأدب المذكرات وناقشنا عشرة ملامح منها النزعة الإنسانية، وأنسنة المكان، والتأريخ الزمني، حب المغامرة، فضح الأنظمة، توثيق الحدث لحظة وقوعه، محدودية المعرفة الإنسانية، التكثيف، الوحدة والفقد، السخرية.

٣- النثر الوثائقي جنس من الأجناس الأدبية اعتمدته روسيا حديثا وارتبطت به بعض الفنون التقليدية، كاليوميات، والمذكرات، والسير الذاتية وغيرها ومنها النموذج الثاني صلاة تشرنوبل.

٤- النموذج الثاني صلاة تشرنوبل للكاتبة سفيتلانا أليكسييفيتش المرتبط بالشهادات واليوميات والمونولوجات الداخلية انبثق من الملمح الرئيس (استلاب الذات) سبعة ملامح أخرى(الخوف، والخداع، والخيبة والعجز، والانكفاء على الذات، والقمع وانعدام الشفافية، والقهر وألم المعاناة، والفقد والحرمان). وسبع تقنيات فنية هي (التوثيق، والمصداقية، والمونولوج، والاستبطان الداخلي للشخصيات، وتعدد الأصوات، والحُلم، والتلاعب الفني بين تداخل الزمان والمكان والحدث في رسم المشهد).

المصادر والمراجع:

١-إبراهيم فتحي، معجم المصطلحات الأدبية، دار المؤسسة العربية للناشرين المتحدين، صفاقص، تونس، ط١، ١٩٨٦.

٢-ابن منظور لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط١٩٩٤،٢.

٣-بهاء الدين محمد مزيد، النزعة الإنسانية في الرواية العربية وبنات جنسها، الأسكندرية،العلم والإيمان للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٧.

٤-جميل صليبيا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني،ط١ بيروت،١٩٨٢.

٥-جورج ماي: السيرة الذاتية، تعريب محمد القاضي، عبدالله صولة، منشورات المؤسسة الوطنية، للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة، قرطاج، ط١،١٩٩٢.

٦-سفيتلانا أليكسييفيتش، صلاة تشرنوبل، ترجمة، د.أحمد صلاح الدين، القاهرة، مصر العربية للنشرو التوزيع،ط١،٢٠١٥م.

٧-عبد العزيز شرف، أدب السيرة الذاتية، القاهرة، لونجمان، ط١،١٩٩٢.

٨-عبد النور جبور: المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤

٩-الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت،ط٢ ،١٩٨٧.

١٠- فيليب لوجون، السيرة الذاتية "الميثاق والتاريخ الأدبي"، ترجمة: عمر حلي، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط١، ١٩٩٤.

١١-د.محمد الدّاهي: الحقيقة الملتبسة قراءة في أشكال الكتابة عن الذات، شركة النشر والتوزيع المدارس ،الدار البيضاء،ط١،٢٠٠٧ .

١٢-د.محمد بوعزة : تحليل النص السردي- تقنيات ومفاهيم-، منشورات .الاختلاف، الدار العربية للعلوم، الرباط، الجزائر، الطبعة الأولى،١٤٢١ هـ.

١٣-ميخائيل بولغاكوف، مذكرات طبيب شاب، ترجمة د. غسان مرتضى، سوريا، منشورات وزارة الثقافة ، دمشق،ط١، ١٩٩٧ .

١٤-هربرت ماركيوز، العقل والثورة (هيجل ونشأة النظرية الاجتماعية)، ت، :فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط،١٩٧٠ م.

١٥-يحيى إبراهيم عبد الدايم، الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٧٥.

١٦-مجموعة مؤلفين، المعجم الوسيط: قام بإخراج هذه الطبعة إبراهيم أنيس، وآخرون، الجزء الأول، الطبعة الثانية أشرف علي، حسن علي عطية، محمد شوقي أمين،١٩٧٢ م.

-الدوريات:

١٧-د.سلطان سعد القحطاني: التماس الفني بين السيرة الذاتية والرواية، مج، ٦٥ مقال ضمن مجلة علامات مايو٢٠٠٨ .

١٨- د. عبدالمجيد البغدادي، فن السيرة الذاتية وأنواعها في الأدب العربي، جامعة بنجاب، لاهور باكستان، مجلة القسم العربي،ع٢٣، ط١،٢٠١٦م.